الدكتور عبد الحليم عويس

فقـه التاريخ

وأزمة المسلمين الحضارية

الطبعـــة الأولى

١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٦ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع

دكتور عبد الحليم عويس

فِقهُ التَّاريخ

وَأزمة المسلِمين الحضارية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

ليس التاريخ بالنسبة للأمة مجرد ماض انتهى ، بل هو بالنسبة لكل الأمم الحية جزء من النهر الكبير الـذى تتدافع بين شطآنه أمواج حضارتها .. فيكـاد الماضى ينسـكب فى الحاضر ، ويكاد الحاضر يذوب بين معبرى الماضى والمستقبل ..

وليس التاريخ مجرد أحداث جامدة إلا لهـؤلاء الذين فقدوا وعيهم بذاتهم وحضارتهم ووقفوا عراة يتسولون من هنا وهناك بعض فتات الحضارات المحيطة بهم ...

إن التاريخ هو الكنز الـذى يحفظ مدخرات الأمـة فى الفكر والثقافة والعلم والتجارب ، وهو الذى يمدها بالحكمة التى تقتضيها رحلتها فى الزمان تجاه تقلب الأحداث .

والأمة التى لا تحسـن الفقه بتاريخهـا ، أعنى بهـذا الرصيد المذخور لديهـا هى أمة فاقـدة للحس التـاريخى ، مريضة بحالة غيبوبة عن الذات ، تائهة — فى النهاية — عـن حقيقتها ودورها ومعالم طريقها إلى المستقبل الذى أعدها له القدر الحكيم .

إن تباين الأمم لم يأت عبثاً ، وإنما جاء لتصنيع كل هذه الأمـم ــ بتباينها وتعدد أنماطها وعطاءاتها ــ رحلة البشرية فى التاريخ ، ولتؤدى ــ كلها ــ الغاية الإلهية المبتغاة من هذه الرحلة التى يخيل لبعضهم ــ بقصور فى مداركهم وحسـهم الحضارى ــ أنها رحلة بلا غاية ، وأنها لا معنى لها •• ولا حكمة تحكم أشواطها ••

إن (فقه التاريخ) ضرورة لكل أمة تريد أن يبقى لهـا دور متميز فى التاريخ ، وهو بالنسبة لأمتنا الإسلامية شرط من شروط وجودها •• فنحن ــ فى مستوى العقيدة والعبادة والحياة الاقتصادية والاجتماعية موصـولون بركن من أركان تاريخنا نطلق عليه اسم (السيرة النبوية وعصر الراشدين) •• ونحن نعتبر هذا الجزء من تاريخنا ــ على الأقل ــ حياة تعيش فى وجداننا ودماً يجرى فى عروقنا ، وهو بعض عقلنا ووجداننا ، وهو رسالتنا الحضارية •••

وإذا ما استثنينا هذا العصر الذى يريد بعضهم حصار تاريخنا النموذجى فيـه ، بل يريدون تشـويهه أيضـا دون اعتبار للطاقة البشرية •• إذا ما استثنينا هـذه الفترة •• فنحن ــ أيضا ــ لا نستطيع إغفال ما أعطته لنا القرون الأخرى من علوم إسلامية فقهية وقرآنية وعلوم لغوية وأدبية وتجريبية وعلوم الدفاع عن العقيدة بمناهج كلامية ولا نستطيع إغفال الفتوحات الإسلامية ، ولا صـفحات الأمويين والعباسـيين والمماليك والأيوبيين والعثمانيين على الرغم من وجود أخطاء لهـم •

إنهم تجربتنا فى التـــاريخ وعبرتنا وإيجابياتنا وسلبياتنا وبعض شخصيتنا ، ولا نستطيع أن نمزق صـــفحتهم وننتمى إلى فراعنة أو قرطاجيين أو طورانيين أو فرس أو غيرهم ممن قطع الإسلام أنسابنا بهم ..

إن أبا بكر الصديق العربى وسلمان الفارسى وصـــهيبا الرومى وصلاح الدين الكردى ومحمد الفاتح التركى وسيف الدين قطز المملوكى ... إن هؤلاء هم أهلى وأرحامى وكيانى الحضارى أكثر ألف مرة مـــن كل (الفراعنة) الذين حكموا أجدادى المصرين المساكين ، وبنوا على أكتاف شعبى المصرى المجاهد مقابرهم الفخمة التى دفنوا فيها وسموها الأهرامات واعتبرت من عجائب الدنيا ... وهى ــ كما سماها شوقى ــ (من بناء الظلم) ... !!

* * *

إن الوعى بتاريخنا وحضارتنا الإســـلامية هو الطـــريق لاستئناف الأمة الإســـلامية لدورها القيادى ... أما عـــن التبعية ــ على غرار كمال أتاتورك وتلميذه أنور السادات ومن على شاكلتهما وهم كثيرون للأسف الشديد ــ فمن شـــأنها أن تحولنا إلى شعوب مستهلكة مدينة ، وأن تحول بين أمتنـــا وأى استقلال أو إبداع ، وأن تحفظ تخلفنا وتمزقنا على النحو الذى قدمته لنا صورة المسلمين والعرب فى الأحقاب الأخـــيرة

التى ظنوا فيها أنهم تحرروا من الاستعمار ونالوا الاستقلال فوجدوا أنفسهم يعانون من ضياع ربما لم يحسوا بثقله على هذا النحو أيام كانوا تحت قبضة الاستعمار السياسى والعسكرى فى القرنين الثالث عشر ومعظم الرابع عشر الهجرى .

* * *

وفى هذا الكتاب نطرح هذه القضية الخطيرة .. قضية (تفسير التاريخ) من وجهة نظر إسلامية تقود إلى (الوعى بالذات) وتأصيل هذه الذات بحيث نطرد عنها كل التفسيرات التى تقود إلى عناصر دخيلة مسقطة على تاريخنا — (وذاتنا) من الشرق أو الغرب ..

ونحن نحمد الله على أن العقل الإسلامى — على الرغم من كل ما يؤخذ عليه — قد تقدم خطوات كبيرة فى وعيه بحضارته وفقهه بتاريخه .. وقد ظهرت فى هذا السبيل نماذج متعددة وقفنا عند بعضها لتأريخ هذا التطور فى النظرة إلى التاريخ ، — وهو التطور الذى نأمل أن يضطرد حتى يكون لإطارنا التاريخى وتجربتنا الحضارية الإسهام الفعال — والمؤثر بقسماته ومعالمه — فى مسيرتنا الحضارية نحو المستقبل الذى يمشى بجناحين معا : الأصالة .. والتحديث ..

وعلى الله قصد السبيل .. ومنه وحده السداد والتوفيق .

القاهرة الإسلامية

غرة ذى الحجة ١٤٠٦هـ (أغسطس ١٩٨٦م)

الفصل الأول

البحث التاريخي في ضوء الرؤية الإسلامية

(مـع دراسـة نماذج معاصرة)

تتميز الحضارة الإسلامية بانطلاقها من ركائز ثابتة محددة ، قد يقترب منها المسلمون — فى بعض العصور — فيمثلونها خير تمثيل ، وقد يبتعدون عنها فيصبحون ممثلين لها تمثيلا نسبياً .

وقد احتل التاريخ منذ ظهرت هذه الحضارة على الأرض مكانة أساسية فى أصول هذه الحضارة ... وإن القرآن الكريم — وهو المصدر الإسلامى الأول — ليحفل بمئات الآيات التى تعالج قضايا التاريخ ، وتستخلص منها القيم الإنسانية والتوجيهات الحضارية التى تفيدها رحلة الأمم السابقة فى مراحل قوتها وضعفها ...

والحقيقة أننا مضطرون لأن نسجل أن المسلمين — فى رحلة حضارتهم — قد وفقوا فى الانطلاق من القرآن الكريم — مصدرهم الأول — فى علوم كثيرة أطلقوا عليها اسم (علوم القرآن) .. كما أنهم قد اعتمدوا على القرآن وانطلقوا منه فى علوم أخرى كعلوم اللغة العربية ... بيد أنهم — مع هذا الخط البيانى المتقدم جدا — فى علوم القرآن واللغة بالنسبة لعصورهم — لم يكن خطهم البيانى مساوياً أو قريبا من خط العلوم السابقة فيما يتصل بفقههم لعلوم تفسير الحياة والتاريخ ...

وحتى مع ظهور بعض الومضات المتألقة لدى مفكر عظيم كأبى محمد بن على بن حزم (٤٥٦هـ) فى كتابه (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) ومفكر عملاق مثل أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (٧٢٨ هـ) — وأخيراً لدى أكبر العلماء على الإطلاق فى فقه التاريخ قبل العصر الحديث مؤرخنا العبقرى عبد الرحمن ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ...

حتى مع ظهور هذه الومضات وغيرها فإن الخط البيانى فى فقه المسلمين للحياة والتاريخ بقى متخلفا لا يتساوى إطلاقاً مع التكثيف القرآنى لقصص الأمم البائدة ، ولا ينسجم مع هذه المساحة التى أعطاها القرآن لرحلة الصراع بين الحق ويمثله (الأنبياء) ، وبين الباطل ويمثله (أعداء الأنبياء) المحافظون على سيطرة الكفر والفساد ، والواقفون ضد العدل والحرية والإيمان .

ولقد انشغل المسلمون بدلا من البحث فى فقه التاريخ — بعلوم كلامية وافتراضات خيالية وصراعات مع أشباح ماضية لم يعد لها وجود ... وحتى اللغة — وليست العقيدة أو الفقه فحسب — دخلها من هذا الترف العقلى ما أفسد رواءها وعقد بساطتها وشوه جمالها ... وكان هذا الامتداد الجدلى على حساب فقه التاريخ والحياة .. وبالتالى ضاعت ومضة ابن خلدون — كما ضاعت الومضات الأخرى — فلم يكد يظهر فقه موضوعى للتاريخ يعتمد منهجية علمية دقيقة إلا فى العصر

الحديث عندما بدأ المسلمون يفيقون إلى موقفهم فى الحضارة بعد غفلة طالت ...

ويعتبر العلامة المهندس (مالك بن نبى) — من وجهة نظرى — أبرز معلم وضيىء فى هذا المنعطف الجديد الذى يمثل الطريق الصحيح لفقه هذا الركن الأساسى فى القرآن الكريم ، وهو فقه الحياة والتاريخ على ضوء التصور الإسلامى الصحيح.

المسلمون والتاريخ فى العصر الحديث :

مما لا شك فيه أن الضمير الإسلامى قد عانى الكثير وهو يجد رقعة العالم الإسلامى فى العصر الحديث تكاد تظللها بالسواد جيوش الاستعمار الصليبى والأوربى .. وما فشل فيه صليبيو (بطرس الناسك) — بعد جهد — نجح فيه — صليبيو المدفع والدبابة والمطبعة — دون جهد — ولقد أدرك المسلمون أن المعركة الجديدة ليست كالمعارك السابقة ... لقد كانت الحضارة فى جانبهم فى كل المعارك السابقة (١) ... أما فى هذه المعركة فقد كانت الحضارة لدى الطرف الآخر ... لقد انهزم المسلمون عبر تاريخهم فى معارك عسكرية كثيرة — شأنهم شأن كل البشر — لكن الهزيمة فى لقائهم الأخير مع الحضارة الأوربية كانت مصحوبة بمرارة خاصة ، إذ أنهم أدركوا أن ثمة تحولا جديداً قد ظهر فى التاريخ ، وأن الأمر

ليس أمر هزيمة عسكرية ... فحتى لو أخرجوا عدوهم وانتصروا عليه عسكريا فإن التحدى يبقى أكبر من ذلك ... وكان هذا هو « القلق » الذى أصاب الوجدان أو الضمير الإسلامى الواعى ... على الرغم من وجود دجالين حاولوا الضحك على شعوبهم وعلى التاريخ ، وصوروا الأمر على أنه معركة عسكرية .. وأن الانتصار فيها وتحقيق الاستقلال العسكرى هو أهم شىء .. مع أن هذا الانتصار - أو الاستقلال - لا يعدو أن يكون عند أحسن الفروض - جزءاً من أجزاء صراع حضارى معقد .

وقد تساءل الضمير الإسلامى - وكان من واجبه أن يتساءل حول تلك الأسباب التى وصلت به إلى هذا المنحدر ؟ وكيف استطاعت الحضارة الأوربية - فى غفلة عنه - أن تصل إلى ما وصلت إليه ؟ وبالتالى : ما العوامل التى أغفلها والطرق التى أهملها حتى اتسعت الشقة بينه وبين خصومه الحضاريين ؟ - وقد تصدى للإجابة على هذه الأسئلة كثيرون مخلصون - ودعنا من غير المخلصين الذين سرقتهم الحضارة الأوربية أو ذابو فيها فهؤلاء لا يعنونا ، لكن هؤلاء المخلصين - مع ذلك - انقسموا فى إجابتهم إلى فريقين :

(١) إذا كانت وسائل المسلمين فى عصر الرسول وخلفائه الراشدين أقل من وسائل أعدائهم ، فقد كان لدى المسلمين شعور بالتفوق الحضارى العقدى والفكرى والسلوكى . وهذا هو المهم .

فريق رافض للحضارة الأوربية بالجملة ••• يشجبها كلها ولا يرى فيها خيرا ، دون أن تكون لديه رؤية إبداعية نقدية تعرف حدود الأخذ والرفض الحضاريين ، وتعرف ما يؤخذ لينمى وما يؤخذ ليقتل ، وتعرف الفرق بين التكنولوجيا وفلسفة التكنولوجيا وأهدافهما ••• وجل هذا الفريق لم يفهم حتى تلك الوسائل الإنسانية العامة • والتى اتكأت عليها أوربا أيضا لكى تحرز تقدمها ، ولم يحاول هذا الفريق — مع إخلاصه الشديد وسلوكه الشخصى الحميد غالباً — أن يتعب نفسه فى جدالية الحوار بين الحضارات ولا فى الفقه بالسنن الكونية ، ولا فى محاولة جادة للقفزة من فوق الجزئيات المتناثرة والرؤى الفرعية إلى الجمع والتركيب والرؤية الكونية والاجتماعية الشاملة ••• وقد ساعد هؤلاء على عجزهم وقصورهم تخصصهم الحرفى فى بعض العلوم الجزئية الموسومة بالدينية ••• فالفقيه يرى الحياة محصورة فى تلك الأحكام الفقهية المتناثرة دون أن يربط فقهه بالتطورات الاجتماعية والسنن التى تحكم المجتمعات ، والمحدث محصور فى دائرة الجرح والتعديل ••• والمفسر — كمؤرخ الحوليات — يشرح (بضم الياء وكسر الراء وتشديدها) الآية تشريحاً جزئيا دون أن يقف كثيرا عند استخلاص القوانين والسنن من خلال الآيات التى تمثل شرائح حضارية متناظرة •

وحتى تلك الآيات القرآنية المتعلقة بالأمم السابقة وبالسنن الكونية عولجت — والأحاديث مثلها — بالمنهج نفسه ••

ـ وهذا هو الفريق الأول ، وهو ينظم أكثر العاملين فى الحقل الإسلامى والفكرى ، وأعضاء هذا الفريق قدموا للأمة خدمة عظمى لا تنكر ، فهم نقلة جيدون للعلـــوم الإسلامية ، وهم حفظة لهـــا ، لكن دورهم يحتاج إلى تطوير حتى يحقق هدفيه الرئيسين : وهما الاجتهاد المستمر لمواجهة التحديات ، وإيجاد البديل والفاعلية الاجتماعية والحضارية الشاملة .

ـ وأما الفريق الثانى من المخلصين فهم تلك القلة المبدعة التى تحمل هم الحضارة الإسلامية على كاهلها ، وبالرغم من تخصصها فى فرع من الفروع ، فهى تمد الطرف إلى الأمـــة الإسلامية عبر الزمان والمكان ، وترى أنه لابد من استئناف دورها فى التاريخ ، وأن ذلك لن يتحقق إلا بالإجابة الواعية الصحيحة عن التساؤلات المقلقة للوجدان الإسلامى ، وصولا إلى وضع القطار فوق القضبان الصحيحة ... فلا يمكن مهما نبغ النابغون فى بعض العلوم والجزئيات ـ أن تقوم حضارة إلا إذا كان ثمة فقه صحيح للســـنن الاجتماعية والكـــونية ، وكانت هناك رؤية شاملة وغايات عليا ... ولن تستطيع المعارف المتناثرة وحدها أن تؤدى دورها إلا إذا توافرت لهـــا شروط التوظيف الحضارى المختصة للفاعلية والبناء ... ومن هذه الشروط :

١ ـ أن تفهم الجماعة الإســـلامية نفســـها وموقعها فى

الحضارة ومسئوليتها نحو التاريخ والبشرية ...

٢ — أن تفقــه الجماعة — أو الأمة — دينهــا وطبيعته الامتدادية والحضارية .

٣ — أن يربط التخصص بالغايات الإسلامية العليا ، وأن تكون مسئولية الأمة نحو التاريخ والحضــارة الإنســانيتين مغروسة فى وجدان كل باحث وعامل وعالم ، فقيهــا كان أو طبيبا أو مهندساً أو مزارعاً أو مفسرا أو محدثاً أو تاجراً .

٤ — أن تزول الحواجز القــائمة بين العلوم المســماة بالدينية أو المعاشية ، فكل ما ينفع هو دين ودنيا وكل ما يضر هو عبء على الدين والدنيا ، وباستثناء الحد الأدنى من الدين فكل العلوم فرض عين إذا تحددت بأشــخاص ، فرض كفاية على مجموع الأمــة .

٥ — أن يعود المسلمون إلى الارتباط بالسنن الكونية ، وفقه قوانين الحضارة ، وتعميق رؤيتهم للتجــارب التاريخية التى سردها القرآن ، وللتجربة النموذجية التى قدمها الرسول (ﷺ) ولتجربتهم الحضارية خلال أربعة عشر قرنا فى التاريخ ، ولتجارب الأمم من حولهم ، ويؤمنوا — بلا ريب — أنهم لن يستطيعوا القفز فوق السنن الإلهية ، ولن يقودوا الحضارة إلا بمؤهلات القيادة ، وفى ظل منــاخ يجب أن يســعوا لتهيئته

وتوفير شروطه .

ومن هذه المنطلقات هب الفريق الثانى من المخلصين المسلمين يسعى إلى إعادة بناء التصور الإسلامى — كما جاء فى الإسلام — ويسعى لإقامة أبنية فكرية ذات مضامين قادرة على تكوين رؤية صحيحة لدى المسلم تجاه الحضارة والتاريخ وما يتصل بهما من قضايا التقدم والتأخر وعوامل النهوض وعوامل السقوط ...

الاتجاه الإسلامى المعاصر فى التاريخ :

ذكرنا أن الاتجاه الإسلامى النقدى الشمولى للتاريخ لم يظهر فى الكتابات الحديثة إلا فى مواجهة تلك الأزمة الحضارية التى أحس بها الإنسان المسلم عندما التقى بخيوله ورماحه ووسائله البدائية مع مدافع أوربا ومطابعها ، وواجه سيطرتها — بسهولة كبيرة — على خريطة العالم الإسلامى .

ومن هنا فقد اتجه البحث لدى كل مخلص — مؤرخاً كان أو عالماً طبيعياً أو فقيها — للبحث عن أسباب تأخر المسلمين وأسباب تقدم أوربا ...

ومن الوقوف عند هذا السؤال — بل تحت هذا العنوان نفسه — ظهرت مجموعة من الكتب والدراسات ...

وبالإضافة إلى هذه البحوث التى اتجهت اتجاها مباشراً لمعالجة القضية وجد اهتمام لدى كثير من الباحثين بحيث وجدنا آراءهم وتحليلاتهم — من كتاباتهم المختلفة — تعالج هذا الجانب بطريقة أو أخرى ٠

إن القضية لم تقف عند (منظر) يجعل القضية همه الأكبر مثل (مالك بن نبى) أو عند تلامذته المتأثرين به تأثرا مباشرا والمنتشرين على امتداد الساحة العربية ، ومنهم الدكتور عمار طالبى (جزائرى) والأستاذ عبد الوهاب حمودة (جزائرى) والدكتور محمود محمد سفر (سعودى) والدكتور عماد الدين خليل (عراقى) والدكتور جودت سعيد ، وجماعة (ندوة مالك بن نبى) فى لبنان وسوريا ٠٠٠

بل إنها رشحت فى كتابات كثيرين من أمثال شكيب أرسلان ، ومحمد إقبال ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، والمفكر المسلم إيتين دينيه ، ومحمد أسد (ليو بولدفايس) وعبد الرحمن الكواكبى وأبى الأعلى المودودى ، والشهيد سيد قطب ، والمفكر الهندى محمد تقى الأمينى ، والعلامة أبو الحسن الندوى ، والداعية الشيخ محمد الغزالى ، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، والأستاذ أنور الجندى ٠٠٠ والأستاذ محمد جلال كشك ٠٠٠ وغيرهم ٠

— وقد بدأ اتجاه جديد يشق طريقه فى الكتابة التاريخية

فى مواجهة الأزمة الحضارية التى تعيشها الأمة ، والتحديات التى تواجهها ٠

المعالم الحضارية فى هذا الاتجاه :

هذا الاتجاه بإجمال يؤمن بأهمية دور الأمة الإسلامية ويؤمن بقدرتها على العطاء واستئناف دورها فى التاريخ ، وهو يثق فى أصول هذه الحضارة ، ويتجاوز مرحلة الانبهار والتلفيق ، ولا يرى فى الحضارة الأوربية الشوط الأخير فى رحلة الحضارة ، بل يرى أن فى هذه الحضارة صنوفا قاتلة من الخلل ، وإن كان لا يؤمن بالتزام السكونية أو القدرية أو الحتمية ، حتى تتداعى آلياً هذه الحضارة ٠٠٠ لأنه مطالب بالبديل وبالعمل — ليس لإسقاط الحضارة الغربية — فهذه ليست قضيته ، بل لتقديم حضارة بديلة تتناغم مع الصياغة الإسلامية للحياة ٠٠٠

ويرى هذا الاتجاه أن ضعف المسلمين وتفرقهم هما أكبر خدمة يقدمها المسلمون لأعدائهم ، وأن كل صور الغزو الخارجية السياسية والاقتصادية والعسكرية مرجعها إلى خلل فى البناء الداخلى للأمة الاسلامية نشأ من الانفصام النكد الذى وقع بين حياة المسلمين وبين شريعتهم وأصولهم الحضارية ٠

ويفرق هذا الاتجاه بين مصطلحى (التحديث) الذى

هو امتــلاك كل الأســاليب الصحية النافعة لدى الخصــم الحضارى ، وبين (التغريب) الذى هو استسلام للغرب ••• فالتحديث علاقة تفاعل بين حضارتين ، والتغريب تبعية المغلوب للغالب ••

ويرى هذا الفريق أن (الحضارة تحد) ولا يمكن أن تستورد الحضارة أو تشترى ، فهى معاناة ورقى متدرجان ، وليست الحضارة هى الآلات أو المنجزات المادية ، بل الحضارة مركب مكون من العقيدة والفكر والإنسان والتراب والوقت ••• وحصاد هذا المركب من نظم ومناهج وماديات هو ثمرة الحضارة ••• فالسبب فى الإبداع الحضارى هو (المركب) ، وأما (الحصاد) أو المخترعات فهى النتيجة والثمرة •

ولا يجوز أن تتقدم النتيجة على السبب •• أو أن يقفز إلى النتيجة دون أسبابها أو مؤهلاتها •

ــ ويرى الاتجاه الإسلامى ــ أيضا ــ أن ثمة (حتمية) فى التاريخ هى (السنن الكونية الإلهية) لكن هــذه الحتمية لا تشل حركة الإنسان الفرد ، ولا تكبل حركة الأمة إن قررت السير فى طريق الحضارة ، فالقدرية الاستسلامية لا تحسب على هذا الاتجاه الإيجــابى الحركى ، وإنما تحســب على الانعزاليين السكونيين من أصحاب النزعات الوجدانية والباطنية ،

كما أن هذه الحتمية ليست من باب الحتمية الماركسية التى تجعل التاريخ كتلة لا واعية تتحرك قدما بطريقة آلية ، وليس لإرادة الفرد أو الأمة دور فيها ...

— ويرفض هذا الاتجاه الدورة الطبيعية للحضارة التى يقول بها العلاقة ابن خلدون ، فابن خلدون كان يعالج الدول — لا الحضارات — فى نظريته ... ونظريته ذات صلة وثيقة بالحتمية التى يرفضها النظر الإسلامى .. والحضارة الإسلامية قادرة على الإفلات من حصار الموت ، وعلى البروز فى مواقع أخرى أكثر قدرة على حمل رأيتها والتعبير عن فطرتها وأدق مبادئها ، لأنها (الحق) الذى يجب أن يبقى فى مواجهة (الباطل) ...

ويرى هذا الاتجاه أن خط الأنبياء والمرسلين هو خط الحق والإسلام فى التاريخ كله ، والقوى المحاربة لهم هى خط الباطل ... ولاصراع فى الحياة إلا بين الحق والباطل .. وأما القوى الأخرى فبينها تعاون وتكامل واستثارة وليس صراعاً ... لاصراع بين الطبقات ولا بين الملاك والعمال ، ولا بين الرجال والنساء ، ولا بين الأجيال ، ولا بين الفرد والمجتمع ... ولا بين الإنسان والطبيعة ... بل هو تكامل حتمى ، حتى ولو لبس ثوب استثارة وتنافس مشروعين ... فهو صراع واحد بين قوى الخير والشر فى الكون والحياة ...

ويجب أن ينظر إلى التاريخ من هـذا المنظور وحـده ... وكيف يكون صراعاً ... ولا غنى للمالك عن العامل أو العكس ، ولا للرجل عن المرأة أو العكس ، ولا للإنسان عن الطبيعة أو العكس ، ... وهكذا — إن هذا الصراع الحاقد العنيف لايؤمن به النظر الإسلامى لحركة التـاريخ ، وليس من منهجـه فى شـىء ...

* * *

ويؤمن النظر الإسلامى للتاريخ بدور القيادة والبطولة والأقلية المبدعة ... إذ ليس فى الإمكان أن يكون كل الناس عمر بن الخطاب أو صـلاح الدين الأيوبى ... وفى الوقت نفسه لن تستطيع الجموع أن تسـير فىطريقها الصحيح إلا بالقيادة الواعية المفكرة المبدعة ... وهـل يمكن أن يكـون تاريخنا متألقا وعظيما دون نجومه المعروفة أبى بكر وعمـر وعثمان وعلى وخـالد وسـعد بن أبى وقاص وأبو عبيـدة والقعقاع وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع وعشرات غيرهم ، وإذا وسد الأمر إلى غير أهله من الرعاع والغوغاء فالمصـير هو التردى والهزيمة ... كما أن الأقلية المبدعة ليست أقلية انعزالية مستعلية بل هى من الأمة وللأمة ، وقد صنعتها الأمة على عينها وبعرقها ... وعليها — بالتالى — مسئولية تجاهها ... ومسئولية أمـام الله الذى سيحاسبها على دورها الذى هيأها له ، ووفر لها وسائله .

والعـــرب مادة الاســـلام ••• وهم ملائكتـــه وأروع أجناسه وأنقـــاها إذا حملوا رايته بإخلاص ، لكنهم أحـــط الأجناس الإسلامية عندما يخونون هذا الدين ويتنكرون لـــه ••• فهم إما ملائكة بالإسلام وإما جنس منحط غرائزى بغير الإسلام ••• ولا طريق لهم فى التاريخ إلا هذا أو ذاك •

بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكـــم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية القبلية بدلا من مفهوم المساواة الإسلامى ، وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة ، لمختلف المناطق التى وصل إليها حملة الإسلام ، ولئن كان الإسلام لا يلزم أحداً باعتناقه فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة ، وساهمت بدور واضح فى مجال الفكر العربى الإسلامى جنبا إلى جنب مع المسلمين (١) •

ولم ينتشر الإســـلام بذاته ••• بل انتشر بســـواعد مخلصة وقلوب نقية وعقول ذكية وهمم عالية ••• فالتاريخ الإسلامى صنعه رجال فاعلون ، ولم يصنعه سكونيون هامدون خرافيون •• وقد عانى صانعو هذا التاريخ مثلما يعانى كـــل البشر وزلزلوا زلزالا شديداً وصبروا على ما امتحنوا به ، وكانت العاقبة — بعد الابتلاء والاختبار — للمتقين •••

وحضـــارة الإســـلام حضارة دعوة حملها التجار والعباد والزهاد ، وليس العنف سبيل الإسلام إلا عندما توصد كل الأبواب •••

---

(١) أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٤١

وفى عهد عمر بن عبــد العزيز الذى لا يزيد عن عامين إلا قليلا دخل فى دين الله أضعاف الذين دخلوا بالمعــارك فى عشرات السنين .

ولدور التاريخ الإســلامى منظومة خاصــة لا عــلاقة لها بالمنظومة الأوربية ، ولا يجوز أن تقاس عليها ... فبينما كان التاريخ الأوربى يمر بأسوأ فتراته بعد ضياع حضارتيه اليونانية والرومانية كان التاريخ الإســلامى يبــدو فى أفق الإنسانية وكأنه شمس متألقة يوشك ضوؤها أن يعم الكون كله ...

إن الفترة الواقعة بين سنتى (١ — ١٣٢ للهجرة) — وهو تاريخ سقوط بنى أمية — أو حسب رأى بعضهم — من السنة (١ — إلى — ١١٤ للهجرة) وهو تاريخ هزيمــة المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء (بواتيه) — تعتبر عصر الفتح الإسلامى الحضارى الذى امتد إلى أكبر مــدى إشــعاعى فى تاريخ الإسلام ... فمن حدود الصين إلى أعماق بلاد الغال (فرنسا) ارتفع مؤذن الإسلام بشعاره الخالد (الله أكبر) وارثاً للتراث الحضارى الرومانى ، ومقدماً نموذجــاً حضــارياً لم تعرفه البشرية من قبل ، أكبر خصائصه أنه يمزج بين العلم والدين والوحى والعقل فى نسيج واحد متكامل غير متنافر ...

فى هذا التــاريخ نفســه (٦٢٢ — ٧٣٢ للميلاد) كان قاموس أوربا لا يعرف ما يسمى بالفكر أو العقل أو البحث

العلمى ، بعد أن قضت الكنيسة على كل ومضات العقل السابقة ، وجعلتها هرطقة يرمى مرتكبها بالزندقة ويستحق القتل ... وصادرت العقل البشرى لحساب الوحى المغلوط ...

وإن الفترة الواقعة بين سنتى (١٣٢ — ٤٨٩ هـ) وهو التاريخ الذى يفصل بين سقوط الأمويين وبداية الحملات الصليبية على المشرق ... وأيضا قبيله بقليل سقوط طليطلة فى الأندلس ...

هذه الفترة على ما بها من تفكك سياسى نسبى وظهور عدد من الدويلات المستقلة عن دولة الخلافة العباسية ، كالأدارسة فى المغرب الأقصى ، والرستميين فى المغرب الأوسط والمدراريين فى سجلماسة ، والطاهريين فى خراسان والطولونيين فى مصر والأمويين فى الأندلس ... ثم حركة الانشقاق الفكرى والروحى والسياسى المتمثلة فى الفاطميين فى المغرب ومصر ... هذه الفترة مع هذه السلبيات كانت فترة ازدهار فكرى وحضارى وتنوع فى الإيقاعات ونشر للعربية والإسلام بالعقل والكلمة والأخلاق ، وظهور لمدارس الفكر الإسلامى ... وبينما كانت مكتبة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) تضم نحو أربعمائة ألف مجلد كانت أكبر مكتبة فى أوربا تضم ١٩٢ كتاباً ... ، وبينما كان المسلم يتوضأ خمس مرات ويغتسل كل أسبوع عبادة لربه ... كان الأوربى الناسك يتباهى بأن جسده لم يمسسه الماء منذ عدد من السنين !!

هكذا كنا ... وهكذا كانت أوربا لخمسة قرون ... بل لعشرة قرون فى الحقيقة ... فكيف تكون دورتنا الحضارية خاضعة للدورة الأوربية ... ولهذا كان بدهيا أن يؤمن الفكر الإسلامى المعاصر بأن دورة حضارته (منظومــة خاصــة) تتناقص مع الدورة الأوربية فى عصرها الوسيط الذى امتــد من القرن السادس للميلاد وحتى القرن السادس عشر .

* * *

وبإيجاز تلك بعض مرئيات الاتجاه الإسلامى المعــاصر نحو التاريخ وهى بعض البذور فى طريق تكوين تفسير إسلامى أصيل للتاريخ والحضارة .

الحصــاد والتقــويم :

أ ــ تطور فى الرؤية والتنظير : ــ

فى البداية ، وقبل مرحلة التنظير للمعضلة الحضــارية بمنهجية علمية تستفيد من تطور فلسفة التاريخ فى العالم ،كانت الدراسات تتجه مباشرة للإجابة على التساؤلات الخاصة بسر تخلف الأمة الإسلامية وتقدم أوربا .

وحتى كتاب الأستاذ أنور الجندى الذى أصدر طبعته الأولى ســنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) تحت عنوان (الإســلام وحركة التاريخ ــ رؤية جديدة فى فلسفة تاريخ الإســلام)

حتى هذا الكتاب الذى يعتبر متأخراً فى صدوره ، ومــع أن مؤلفه الكريم جال بناعبر تاريخنا الإسلامى جولة طيبة إلا أنه قد اتجه إلى هذه الطريقة المباشرة عن (عوامل التأخير ودوافع التقدم) دون أن يقدم الإطار التفســيرى التاريخى لهــذه العوامل وتلك الدوافــع ، على النحو الذى نراه — مثلا — عند مالك بن نبى أو عماد الدين خليل أو محمد جلال كشــك أو محمود محمد سفر ....

ويلخص الأستاذ أنور الجندى رأيه حول عوامل التحلل والضعف فى عالم الإسلام فى ثمانى نقاط .

١ — الخــلافات السياسية والعصبية وتنــازع الرآسة والجــاه .

٢ — الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين .

٣ — الانغماس فى ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات .

٤ — انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة والمماليك والأتراك وغيرهم .

٥ — إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونيــة وصرف الأوقات وتضييع الجهد فى فلسفات نظــرية عميقــة وعلوم خيالية سقيمة .

٦ ــ الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم .

٧ ــ الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم .

٨ ــ الدعايات الاستعمارية التبشيرية (١) .

ومع تقديرنا لهذه المستخلصات الطيبة إلا أن الوصول إليها كان يجب أن يوضع فى إطار من التحليل العلمى المتكىء على رؤية عميقة للتاريخ ...

وقد كان المجاهدان الكبيران عبد الرحمن الكواكبى وشكيب أرسلان أسبق فى الوقوف عند هذه النقطة ، وقد قدماً فيها عدداً من المقترحات والآراء التى تلتقى بنسبة كبيرة مع ما قدمه الأستاذ الجندى ...

فقد رأى الكواكبى أن عوامل ضعف المسلمين هى جهلهم ولا سيما الأمراء منهم ، وظهور الحكومات المستبدة وحرمان الشعوب من الحرية وتعطيل شريعة الله وإهمال الدين وأنحلال رابطته وتشويهه بواسطة العلماء المدلسين والمؤولين والاقتصاد على العلوم الدينية وإهمال العلوم الطبيعية والرياضية ، والفقر ، وتكبر الأمراء وميلهم الى المنافقين وعلماء السوء (٢) ...

---

(١) أنور الجندى / الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٧٩ طبع بمصر .
(٢) طبائع الاستبداد .

أما العلامة شكيب أرسلان فقد رأى أن أهم عوامل تأخر المسلمين هى :

ترك المسلمين عزائم القرآن التى قام بها سلفهم ، وإعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية ، والاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة واللهو بالقشور عن اللباب ، واليأس من رحمة الله وفقدان الثقة فى النفس واستخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية ، ومواطأة المسلمين الأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياهم ، وفقد روح التضحية التى سادت بها الأمم الأوربية ، وعدم اقتداء المسلمين بالأوربيين فى تأليف الجمعيات والشركات، وفساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة ، وفساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات ، وتفوق الأوربيين فى العدة وطمعهم فى مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام وثباتهم وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين ويخيم الجهل على الأمم الإسلامية ، وعدم تجدد برامج التعليم واستيلاء الجمود على الفقهاء ، وكثرة الكلام عن الآخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة ، والدعايات الاستعمارية التبشيرية (١) .

بيد أن تطور العقل المسلم فى التنظير للمعضلة الحضارية

(١) انظر أنور الجندى / الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٨١

قد مكنه من تقديم تصور لعملية التطور الحضارى بطريقة منهجية وشمولية .. فليس الأمر فى البناء الحضارى مجرد تقديم اقتراحات أو علاج بعض الأمراض ... فالقضية تتصل بالكيان الحضارى كله وبروحه الهامدة وبإرادته الخامدة ... وعلاج الروح عمل معقد يحتاج إلى توجيه فكرى ونفسى وجمالى وإلى إعادة ارتباط المسلم بالسنن الكونية من خلال عقيدة حضارية قادرة ... حتى يعرف المسلم موقعه فى الكون ورسالته نحو الإنسانية .

وفى هذا الإطار كان لمالك بن بنى — على المستوى التنظيرى — فضل كبير ، وكان للمجاهدين من أمثال الشهيد حسين البنا وتلاميذه وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالى والشهيد سيد قطب والدكتور يوسف القرضاوى وغيرهم من أمثال العلامة أبى الأعلى المودودى ، والعلامة أبى الحسن الندوى وتلامذتهما ... والإمام عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء وغيرهم — على المستوى التطبيقى — فضل كبير أيضاً ...

ومن خلال هذا النمو النظرى والعملى بدأت الكتابة التاريخية من منظور إسلامى تصل إلى مرحلة طيبة من الرشد ... فبالإضافة إلى سلسلة مالك بن نبى (مشكلات الحضارة) والتى تضم (شروط النهضة ، وآفاق جزائرية ، وفى مهب المعركة ، والمسلم فى عالم الاقتصاد والظاهرة القرآنية)

وغيرها ... بدأت تظهر كتابات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فى منهج الحضارة الإنسانية وحوار حول مشكلات حضارية ، وكتابات الدكتور عماد الدين خليل حول (التفسير الإسلامى للتاريخ) وكتابات الأستاذ محمد جلال كشك حول (الغزو الفكرى ، والقومية والغزو الفكرى ، والماركسية والغزو الفكرى ، ودخلت الخيل الأزهر) وغيرها ، كما ظهرت دراسات الدكتور محمود محمد سفر تحت عناوين (الحضارة تحد ، وإنتاجية مجتمع ، والإعلام موقف ، والتنمية قضية) وغيرها ... وظهرت بحوث الدكتور عون الشريف قاسم حول (قضايا البعث الحضارى) وظهر بحث الدكتور عثمان موافى بعنوان (منهج النقد التاريخى الإسلامى والمنهج الأوربى) وبحوث الدكتور محمد فؤاد حجازى حول (البناء الاجتماعى، والتغيير الاجتماعى) وبحوث العلامة الدكتور عمر فروخ فى التاريخ الإسلامى وتفسير التاريخ ... وبحوث الأستاذ جودت سعيد تحت عناوين (حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وفقدان التوازن الاجتماعى ، والإنسان عندما يكون كلا وحين يكون عدلا) ... وبحوث كاتب هذه السطور حول (تفسير التاريخ) ... كعلم إسلامى و (دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية) ...

وهكذا — وبدون استطراد كبير لايتسع له المقام — بدأ العقل المسلم يقتحم عالم السنن التاريخية والاجتماعية ، حتى يكتشف من خلال تعرفه عليها التفسير الصحيح للأزمة الحضارية التى تمر بها أمته ، والطريق لعبور هذه الأزمة وكان

هذا — فى حد ذاته — خطـوة طيبة للقفز بالمنهج التـاريخى ودفعه ليلتحم بفلسفة التاريخ التى هى جزء لا يتجزأ مـن المنهج التاريخى السليم .

ولم يقف الإنجاز — فى النظرة الإســلامية للتاريخ — عند هذا الأفق — مع سموه — بل إن ثمة إنجازات تمت على مستوى الكتابة التاريخية المباشرة ...

لقد تهاوت فى العقل المسلم كل محاولات الانتقاص من شخصية الرسول ﷺ ، ومن خلفائه الراشدين ، وأكدت مئات البحوث الإسلامية وغير الإسلامية أن محمـداً هو الأول فى التاريخ ، وأن كل ما ظن أنه شهادة ضده هو شهادة له ... فحتى تعدد زوجاته كان شهادة له من تسع زوجات مطلعين منه على كل صغيرة وكبيرة — ويستحيل تواطؤهن على الكذب وقد عاش بعضهن بعده نحو نصف قرن وحرمن من الرجـال بسببه — ومع ذلك ظللن يعترفن بعظمته ويؤمن بنبوته ولم يتغير رأيهن فيه قط مع أن كل العظماء — كما يقال — يفقدون عظمتهم فى بيوتهم مع الزوجة الواحدة ... إلا محمداً الذى بقى عظيما مع تسع زوجات (1) !!

وقـد ظفـر العصر الراشــدى بتقـدير كبير وتألقت

---

(1) انظر بحثا فى هذه القضية بعنوان (شخصية الرســول أمام المقاييس الإنسانية) للكاتب (ألقى فى الندوة الثالثة لتــاريخ الجزيرة بالرياض) .

عظمة أبى بكر وعمر ••• وحتى خـلاف الصحابة فيما بينهم وصل النظر السليم إلى أنه خلاف فى سبيل الحق ••• المصيب منهم والمخطىء كان يبحث عنه •• وقد دعمت أبحاث العلامة محب الدين الخطيب والدكتور محمد الصادق عرجون هـذا الاتجاه الحميد •••

ولئن كان الصحابة بشراً على أعلى طراز مـن البشرية الزكية المخلصة ــ على الرغم من وجود خلافات اجتهادية بينهم ــ فإن النظرة إلى الدولة الأموية والعباسية ــ من باب أولى ــ يجب أن تكون منصفة ، فتسجل لهم الإيجابيات ، وتسجل السلبيات ، وسوف نجد أن دولة بنى أمية ــ مع وجود أخطاء ــ قد قدمت خيراً كبيراً للإسلام ، وكانت ــ بحـق ــ دولة الفتوحات العظيمة ــ كما أن دولة بنى العباس قد نجحت فى استيعاب الانفتاح الحضارى ، وأبرزت الألق الفكرى الإسلامى فى وجه التيارات الزاحفة من الحضارات المنهزمة ••• ووقفت فى وجه حركات شعوبية وإلحادية كثيرة ••• وهذا لا يعنى عـدم وجود أخطاء فيهـا •• !!

ــ وقد أنصف الأيوبيون أبطال حطين •••

ــ وأنصف المماليك أقطاب عين جالوت •••

ــ ووضعت أصول نظرة علمية للتاريخ العثمانى وفضله على المسلمين لقيامه فى وجه الغارة الصليبية التى كادت تبتلع

المغرب والمشرق بعد قضائها على الأندلس لولا ظهور القـــوة العثمانية الإسلامية الفتية .

ومع كل العبث والتضليل الذى وقع فى التاريخ الحديث فقد نجحت الرؤية الإســلامية للتاريخ فى كشــف الحركات المعادية التى تلبس شعارات القومية والشــعوبية والإلحادية والماسونية المستترة والتقدمية والوطنية وكانت — ولا زالت — عائقا دون وحدة العرب وتقدمهم .

— وقد أبرز المنهج التاريخى الإسلامى الدور الأساسى للإسلام فى تحرير الشعوب الإسلامية ، ولا سيما فى الثورات التحريرية الكبرى كثورة الجزائر ، ووقوف ليبيا ضد الإحتلال الإيطالى ، ووقوف الأزهر ضد الحملة الفرنسية وضد مظالم الولاة وثورات أندونيسيا ومسلمى الهنــد ، ودور الأزهــر والزيتونة والقرويين والمعــاهد الإســلامية فى بعــث الوعى الإسلامى بعامة .

ب — تطور فى مناهج البحث :

وقد بدأ تقويم شامل للمصــادر التاريخية الإسلامية ، فوجه النقد لمؤرخين كبار من أمثال المسعودى (المعتزلى) وابن طباطبا (الباطنى) واليعقــوبى (الباطنى) وابن مســكويه (وكان تابعاً لبنى بويــه الباطنيين) وعبد الواحــد المراكشى (ظلم المرابطين لحساب الموحدين) وناصر خسرو وابن حوقل (لا تجاههما الباطنى) .

وقــد بدأ تطبيق عملى فى الكتابة التاريخية لذلك المنهج ــ الذى كان يحلم به ابن خلدون ــ فأصبح التاريخ مصحوباً بلون من التفسير والنقد الداخلى والانسجام العقلى ، وقــد نقد المؤرخ المتحيز والمتملق والجاهل ، ورفضت الثقة المطلقة فى الناقلين عن طريق الجرح والتعديل . ومع التحــام تفســير التاريخ بالعملية التاريخية البحتة ظهر تقدير المؤرخين لما سماه ابن خلدون (طبائع العمران) فميز الصدق من الكذب ... (فالقانون فى تمييز الحق مــن الباطل فى الأخبــار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، ونعرف ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له) (1) .

ولا نســتطيع ــ مع تقديرنا لتأثير ابن خلدون ــ أن ننكر أثر التيارات التاريخية الوافدة مثل كتابات أرنولد توينبى وأوزفالد سبنجلر وغوستاف لوبون وأوجست كونت ورينيــه دوبووأ ليكسيس كايل وإدوارد جيبون وغيرهم ــ على مــا لديهم من أخطاء ــ كمــا لا نســتطيع أن ننكر أثر الأفكــار المضادة . مثل الأفكار الماركسية المادية الحتمية عــن التاريخ عند كارل ماركس وجورجى بلنجانوف وأفكار فريدريخ هيجل المثالية .

ومع تطور المنهج نظر بعين الشك إلى الحشو المغلــوط

(1) مقدمة ابن خلدون ٣٣ طبع بيروت .

الذى يراد جعله تاريخاً ، والمتمثل فى عــدد من الموســوعات الأدبية مثل كتاب (الأغانى) لابى الفرج الاصفهانى ، ومثل قلائد العقيان ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان والعقد الفريد لابن عبد ربه ... فهى مصادر يؤخــذ منها ويــترك وأكثرها منحول لا يصور حياتنا الاجتماعية .

وفى العصر الحــديث ظهرت أدوار ســاطع الحصرى ، وجورجى زيدان وبقية مدرسة المستغربين كما كشفت مدرسة المستشرقين والمدرسة المركسية ، فى العبث بتاريخنا وتحريفه لخدمة الأغراض المحددة .

ويكاد ينتهى التطور فى المنهج التاريخى من وجهة نظــر إسلامية إلى عدد من المسلمات التى تمثــل إضافة جيــدة ، وأهمها :

١ ــ الارتباط بين العمــل التاريخى الوثائقى والعمــل التفسيرى الداخلى فى فقــه التاريخ .

٢ ــ تقويم المصادر على أساس الإفادة من منهج المحدثين فى الجرح والتعديل واعتماد القــرآن والسنة (المصــدرين الأساسيين) للتاريخ الإسلامى والتاريخ العام .

٣ ــ ضرورة أن يجمع المؤرخ وظائف ثلاث (مؤرخ ، ومحدث ، ومفسر) .

٤ — الشمولية فى النظـر التاريخى بين شتى العوامل المؤثرة فى الحركة التاريخية من فكر واقتصاد وحياة اجتماعية وعقدية وسياسية وعسكرية ، فليس بالسياسة وحدها تصنع الحياة ، بل كان للعلماء والصناع والزراع والتجار دور أهـم فى صناعة التيار الحضارى .

٥ — ضرورة توافر أدوات البحث التاريخى فى المؤرخ المسلم من عدالة وضبط وموضـوعية وفقة باللغة والعـلوم الإسلامية والجغرافيا الإسلامية عبر القرون ، وعدم الحكم إلا من خلال علم مؤكد .

٦ — رصد الغايات العليا الإسـلامية وتأثير مبـادىء الإسلام فى التاريخ العالمى والحضارة الإنسانية .

٧ — إبراز تاريخ الأنبياء باعتباره تاريخ جبهة الحـق وهداة القافلة البشرية .

٨ — النظر إلى التاريخ الإسلامى كله على أنه تاريخ كل مسلم ورفض النظرة الشعوبية للتاريخ فتاريخ الهند وأفغانستان والأندلس والمغرب ومصر والشام والجزيرة العربية وأندونيسيا وبقية أقطار العالم الإسلامى وحدة لا تتجزأ .

* * *

وبإيجاز ... لقد حقق الاتجـاه الإسلامى تطـوراً فى الرؤية ، وفى المنهج ، والتحم بآفاق الماضى وآفاق الحاضر ،

وقدم دراسات نقدية جيــدة وأطروحات موفقة اتكأت على منهجية سليمة ، بل كان الاتجاه الإسلامى أســبق فى التنظير الفلسفى للحركة التاريخية على مستوى العالم الإسلامى .

بيد أن الخطوات فى طريق كتابة شاملة للتاريخ الإسلامى بمنهج إسلامى رصين تمضى بطيئة وبجهود فردية ومــا زال التاريخ الإسلامى يتعرض لغارة شرسة من أعداء الإســلام وخصوم حضارته .

ولم يجد الاتجاه الإسلامى الإمكانات لكى يقدم موسوعات تدحض ذلك العرض السيىء الملىء بالسموم الذى تحفل بــه الموسوعات التاريخية الاستشراقية ودوائر المعــارف الغربية والتفسيرات الماركسية لتاريخنا — فضلا عن أن بعض الكتابات التاريخية المخلصة تمتاز بالجمع التقليدى للوقائع ، وبافتقادها إلى عنصر النقد العلمى وباعتمادها على العاطفــة والأفكــار الشائعة .

— ولعل المنهج التاريخى الإسلامى يتجاوز هذه الأخطاء التى يقع فيها بعض المحسوبين عليه فى وقت قريب بإذن الله .

* * *

وأيا كان الأمر — واقترابا من مجالات التطبيق التى تدخل بطريقة ما فى التقويم — نقــدم بعض النمــاذج الأصــيلة والرائدة فى ميدان البحث التاريخى القائم على الشمولية والتفسير واستخدام التاريخ كعنصر أصيل فى ذاتنا الحضارية .. وسوف يرد فى ثنايا عرضنا لهذه النماذج ما نأخذه عليها من سلبيات ، وما تحفل به من إيجابيات ...

دراســة نمــاذج معاصرة

النمــوذج الأول :

التفســير الإســلامى للتــاريخ

بقلــم

الدكتور : عماد الدين خليــل

نقدم فى هذه الصفحات التالية محــاولة رائدة للخروج بتاريخنا من دائرة السرد إلى دائــرة التحليل ومن الإطــار الجزئى إلى النظرة الكلية التنظيرية •

إنها محاولة الدكتور — عماد الدين خليل — « التفسير الإسلامى للتاريخ » !! وليس لنا أن نتجاهل — ونحن بصدد الحديث عن محاولة الدكتور عماد الدين خليل — رصد الخطوط الأساسية فى « التفسير الإسلامى للتاريخ » إن عماد الدين خليل قد حاول — عبر عديد من الأعمال — أن يغرس بعض تفسير إسلامى للتاريخ مستقى من المصادر الأساسية للتصور الإســـلامى •

— ومن هنا ونحن نرى أن وجهى المحاولة نظرياً وتطبيقياً

لابد أن يؤخذا فى الحسبان • وكما يجب أن يدرس كتاب — « التفسير الإسلامى للتاريخ » يجب أن يدرس فى الكفة الأخرى : (دراسة فى السيرة) وبداخله (خطوات فى الهجرة والحركة) وملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وعماد الدين زنكى (على الرغم من وصفه الأكاديمى) — وتهافت العلمانية (وملاحظة فى التقليد الحضارى) — وربما غيرها فى الدراسات الوجيزة أو الطويلة مما يمكن أن تكون قد حاولت بيننا وبينها ظروف الاضطراب الحضارى الذى يمر به العالم العربى الآن •

ونحن مضطرون فى تقديمنا لهذا العمل الذى نعتبره رائدا فى مجاله ولم تسبقه إلا محاولات يغلب فيها « الإخلاص » « والعاطفة » على القدرة التركيزية التى تتطلب عمقا كيفيا يوجب استيعاب الوعى « الطولى » بالتاريخ العام والوعى المكثف بالتاريخ الإسلامى فى أبعاده المختلفة المستويات : اجتماعية واقتصادية وفكرية وسياسية •

نحن مضطرون إلى أن نعبر نحوا من سبعين صفحة من صفحات الكتاب الذى يقع فى أكثر من عشرين وثلاثمائة صفحة من القطع الكبيرة ••

ففى هذه الصفحات التى وقعت بين « المقدمة التمهيدية » وفصول الكتاب الثلاثة المهمة التى تعالج أبعاد (التفسير الإسلامى للتاريخ) فى (الواقعة التاريخية) من جانب وفى

« المسألة الحضارية » التى تمثل حركة الحياة البشرية فى إطار الحركة الكونية — من جانب ثـان ... ثم « سـقوط الدول والحضارات » كما يرصدها التفسير الإسلامى — من جانب ثالث ..

فى هذه الصفحات السبعين ... يتناول الدكتور عمـاد الدين — بالعرض المركز — « التفاسير الوضعية الأساسية » وهى فى رأيه ثلاثة :

١ — التفسير المثالى ويمثله « هيجل » .

٢ — التفسير المادى ويمثله « كارل ماركس » .

٣ — التفسير الحضارى ويمثله « أرنولد توينبى » .

ويتتبع الدكتور عرض كل تفسير بنقد يعتمد فيـه على معطيات المسيرة التاريخية ، وعلى أولويات العقـل . وعلى المصادر التى سبقته لنقد هذه النظريات .

— ولكن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن — من الناحية المنهجية — مادمنا بصدد تعامل مع التاريخ : هل يقتضى المنهج التاريخى أن تتصدر هذه التفسيرات (محاولة رصد ملامح التفسير الإسلامى للتاريخ) ؟ أم أن المنهج كان يوجب على

هذه التفسيرات أن تحتل مكانها فى مؤخرة الدراسة ، وأن يأتى التفسير الإسلامى — السابق زمانا على الأقل — فى صدر الدراسة ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال نرى أن نلجأ إلى الدكتور عماد الدين نفسه فى كتابه — موضوع العرض — إنه يقول فى الصفحة الأولى من المقدمة :

« إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة فى القرآن الكريم تلك هى أن مساحة كبيرة فى سوره وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التى تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصى (الواقعى) لتجارب عدد من الجماعات البشرية وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التى تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم وبالصيغ الحضارية التى لا حصر لها والتى تتأرجح بين البساطة والنضج والتركيب وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) فى القرآن الكريم بحيث أن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة إلى حدث أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ » .

فالتفسير الإسلامى حقيقة إذن ... وهو ليس عملا مفتعلا أو رد فعل للتفسيرات التى ظهرت مثالية أو مادية ..

وهو ــ أيضا ــ ليس جريا لاهثا وراء قضية احتلت مكانها من الفكر المعاصر •

بل إن الدكتور عماد الدين خليل لا يلبث أن يتحدث عن مأخذ خطير يأخذه على كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين الذين وقعوا فى خطأ القول :

بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج وأنه لا توجد قبل ابن خلدون أية محاولة لتفسير التاريخ • ومن عجب أن ابن خلدون نفسه وقع فى الخطأ ذاته عندما أكد فى مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة فى هذا المجال وكان أحرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق •

ومع هذا الاعتراف ــ بالسبق القرآنى فى هذا المجال ــ فإن الدكتور عماد الدين خليل قد وقع فيما وقع فيه ابن خلدون وذلك حين صدر التفسيرات الأخرى بما يوهم أنها أسبق أو أنها الأصل الذى يقاس عليه مع أ نمكانها المنهجى ــ فى رأينا ــ أن تأتى متأخرة ولمجرد المقارنة التى تكشف عناصر الاختلاف ومظاهر السيطرة والجزئية الشديدة المحدودة التى حصلت بها هذه التفسيرات والتى جعلتها أقل (مكانا) ومكانة عن « التفسير الإسلامى للتاريخ » •

وفى هذا المنهج أيضا نلحظ أمرا يظهر لأول وهلة فإن المادة التى اتكأ عليها الدكتور عماد الدين تكاد تنحصر فى

« القرآن الكريم » بحيث يبدو وكأنه لا وجود للسنة الشريفة ، مع أن ثمة أحاديث نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية واستشرفت آفات المستقبل البعيد مما هو ضرورى التناول عند المعالجة لموضوع : « التفسير الإسلامى للتاريخ ». فهل يا ترى ترك المؤلف الصديق « السنة » وتاريخ المسلمين بشقيه الصحيح والمنحرف عامداً لاعتبار رآه ؟ وما هذا الاعتبار؟

وأنا أرى أن الكتاب الذى بين أيدينا أولى به أن يسمى : « التفسير القرآنى للتاريخ » لأن « التفسير الإسلامى » يجب أن يعطى للسنة الشريفة دوراً أساسيا عند رسم كل أبعاد صورة « التفسير الإسلامى للتاريخ » .

وندلف الآن إلى مادة الموضوع :

وفى البداية يطالعنا الدكتور بحديث جيد ومركز عن « الواقعية التاريخية » من الوجهة القرآنية .

« وقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية وحدثنا عن الماضى فى جل مساحته ، لكن ما يلبث أن يخرج لنا ببيان الحكمة من وراء هذه العروض وإلى بلورة عدد من المبادىء الأساسية فى حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدثى لهذه العروض تلك المبادىء التى

سماها « سنناً » ودعانا أكثر مـــن مرة إلى تأمها واعتمـــاد مدلولاتها فى أعمالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلى » .

وعلى امتداد الكتاب الكريم تترى العروض القـــرآنية مغطية مساحة زمنية تبدأ من آدم وتنتهى بالرسول محمد عليهما الصلاة والسلام .

بل إن بعض الآيات القرآنية لتتجاوز الماضى والحاضر لكى تمد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيـــد فى تنبؤات تاريخية يحيط بها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية .

ولم يغب عن القرآن الكريم أن يوضح الأســـباب التى من أجلها تنزلت هذه العروض التاريخية والإيحاءات المستقبلية . إنها كلها لهدف إثارة الفكر البشرى ودفعـــه إلى التســـاؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق وتقديم خلاصات التجارب البشرية وإزاحة ستار الغفلة والنسيان فى نفس الإنسان وتقديم البرهان على الحق الواحد الذى جاء به الأنبياء .

أما النتائج المرادة من هذه العروض فهى الانسجام عن وعى بالسنن والنواميس المتمخضة عن دراسة التاريخ البشرى والتمعن فى وقائعه وأحداثه ، وفى القرآن الكريم لا تتحدد هذه النواميس ولا تأسر نفسها بتفاصيل وجزئيـــات موقوتة بـــل

تمتد مرنة منفتحة شاملة لكى تضم أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى — فى النهـاية — الحصيلة النهائية والرموز المكثفـة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ .

إن هـذا الركن من أركان بحـث التفسـير الإسلامى الثلاثة قد اعتمد بصورة مركزة وجيدة على القرآن الكريم فى مسألة « الواقعة التاريخية » بحيث نستطيع القول : إن المؤلف قد استعرض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع استعراضاً شبه كامل وأنه أحسن استغلال النص وكان يتحرك من داخل النصوص بموضـوعية ووعى جعلت خطى النص والتحليـل يسيران فى تآزر دون أن يطغى أحدهما على الآخر .

ومن خلال هـذا التتبع القـرآنى لمسيرة « الـواقعة التاريخية » تكشفت لنا رؤى ومعطيات أبرزها مجموعة مـن السنن الكونية التى دل القرآن عليها خلال حديثه عن الأمم السـابقة .

ومنها — أيضا — تلمس لأبعاد المسألة الزمنية فى القـرآن وهى تلك المسألة التى تخبطت فيها الآراء الحديثة منذ بدايات « الدارونية » الأولى بين القائلين بالخلق المباشر المسـتقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعى .

فالقرآن عبر استعمالاته للبعد الزمنى يبين لنا أن الروح الإلهية متجلية فى أصل الإبداع لكن لا يبين لنا « سر الروح »

ولا المدى الزمنى الذى استغرقته عملية إبداع الكون بالنسبة لوعينا البشرى بالزمن وهو وعى محدود جداً فى عصرنا فكيف بالعصور السابقة ؟ .

لكن الجلى من الآيات القرآنية أن فعل الله كان مباشرا ، وأن هذا الفعل يسخر لتحقيق حكمة الله الدافعة فى التاريخ بقوتين : قوة الطبيعة المادية المنظورة وقوة الروح غير المنظورة ، وهذه الأخيرة هى الفرق الجوهرى بين التفسير الإسلامى للتاريخ والتفسيرات الوضعية .. إنها « البعد الغيبى » (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

ومما نستخلص من معطيات المسيرة القرآنية فى أطوار « الواقعة التاريخية » — كذلك — أن للإنسان دوراً أساسيا فى هذه الواقعة . وهذا الدور هو ما نسميه « بالحرية الإنسانية » التى هى فى مداها البعيد جزء من إرادة الله فى خلق الأفعال والأحداث .

وفى إطار هذه الحرية تتحرك قوى العقل والإرادة والإنفعال والحس والحركة وغيرها من الطاقات التى ركبها الله فى الكائن البشرى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم » وعشرات من الآيات القرآنية التى تؤكد على المستويين الفردى والجماعي هذه الحرية المنسجمة — فى الوقت نفسه —

مع الدوائر الكبرى التى تصنعها مشيئة الله وعلمه الواسع المحيط . وهكذا فإن الواقعة التاريخية تجيء وفق درجات ثلاث : أولاها : (علم الله ومشيئته) وثانيها : (إرادة الإنسان وحركته) وثالثتها : هى (المادة الخام) التى يخضعها الإنسان لإرادته فى إطار منسجم مع سنن الله الكونية التى لا تختلف ، وفى حركة متوازنة محكمة الترابط بين دور الفرد ودور الجماعة أى بين النبى والأمة والبطل والجماهير والقائد والجنود وهكذا .

وفى القسم الثانى من هذا البحث يعالج الدكتور عماد الدين الدائرة الأوسع : دائرة المهمة التى خلق الإنسان — أساسا — لممارستها فى العالم والمركز الذى يحتله فى الكون إنها (المسألة الحضارية) التى شغلت أذهان ابن خلدون وتوينبى وهيجل وماركس ، وخيل للناس أن هؤلاء وحدهم هم الذين أظهروا هذه المسألة للوجود مع أننا — كما يقول المؤلف — نستطيع أن نتلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع إلى حادثة « خلق آدم » باعتبارها الزاوية فى الوجود البشرى بل إن (المسألة الحضارية) — ما دمنا نعنى بهذا الجانب الحضارى (الفاعل المبدع) المواجه لكتلة العالم الطبيعية والمستجيب لتحدياتها — تتخطى حادثة آدم إلى ما ورائية الوجود الآدمى ...

أى أن سائر العمليات أريد بها تهيئة العالم لاستقبال

المخلوق الجديد وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات ، وذلك إلى اليوم الذى قال الله فيه للأرض وللسماء : (إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) •• وبالتالى ، وفى رأى الدكتور عماد الدين ــ : فإن التاريخ الحضارى هو : « كل فعل تمتزج فيه إرادة الله وروحه وكلمته بالمادة فتصوغها كتلا كونية أو نظما طبيعية أو إنسانا يتولى خلافة الله فى الأرض لإعمارها » •

لكن هل يستطيع أى منهج من مناهج فلسفة التاريخ أن يمد الطرف إلى هذه المرحلة ؟ إن التاريخ الحضارى فى القرآن هو وحده القادر على تحقيق هذه الشمولية فى النظرة دون أن يعتمد على افتراضات لا جدوى منها •

وحيثما انتقلنا فى أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أصيلا بالدور المنتظر الذى بعث الإنسان ليلعبه ــ هذا من جانب ــ ومن جانب آخر بمرحلة تكوين جنين الحياة على الأرض ••

أما المسألة الحضارية ــ فى جانبها الإنسانى ــ فترتبط بخلق آدم وبالظروف والدلالات والإرهاصات والرموز التى صاحبت لحظة تعيينه خليفة الله فى الأرض ومجابهته (بإبليس) الذى يمثل التحدى فى المسألة الحضارية •

ومن خلال « العمل العقلى والجسدى فى اتجاه الإصلاح

أو الإفساد تتحدد نتيجة الصراع الحضارى بين الإنسان والشيطان وميدان هذا الصراع هو كتله العالم والطبيعة التى يدور بينها وبين الإنسان حوار دائم وأبدى ... هو يسأل دائما وهى تتمنع — إلى حين — فى الإجابة .

« وفى القرآن الكريم مئات الآيات والإشارات تنفخ فى الإنسان هذا المعنى الحضارى العظيم وتعلمه أن حواره مع الطبيعة أن يستمر إلا بالسعى والكدح والحركة » وسواء استمر الحوار بينهما على أساس « النظر الحسى » أو « الرؤية الداخلية » التى هى البصيرة أو « الفكر المجرد » القائم على البراهين والحجج فإن الصورة الفذة التى يطرحها القرآن عن ذلك التناغم بين الإنسان والطبيعة وما وراءها وذلك التوازن بين تسخير القوى المادية وتصنيعها وبين عبادة الله سبحانه وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعلمية وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفعالة وبين نسبيته وضعفه وحاجته الدائمة إلى الله .. هذه الصورة التى لم يستطع أصحاب المذاهب الوضعية الوصول إلى تصور أبعادها وحصروا أنفسهم فى دائرة محدودة أسموها « الصراع » أو « تحاور النقائض » المتقابلة أو الجدل « الديالكتيك » مع أن هذه الثنائية — وإن صحت لتفسير بعض الجوانب — فإنها — بمفهومها الوضعى — لا تصح لتفسير كل الجوانب .

لكن الصراع — مع ذلك — لا يرفضه الإسلام كمبدأ عام أولى « وكذلك فتنا بعضهم ببعض » « ولولا دفع الله الناس

بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ويرى الدكتور عماد الدين أن « هذا الصراع » ممتد فى التاريخ « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ــ لكن الدكتور المؤلف الذى عمم هذا المبدأ وأخذ على هذه المذاهب حلمها « يوتوبيا » أو « عالم البروليتاريا » الهادىء قد ترك شطرا من الآية « إلا من رحم ربك » وهو أيضا عند هذه النقطة قد طبق على عالم الفكر ما طبق على عالم المادة دون أدنى تفرقة بين المجالين ، ففى رأينا إذا جاز أن يكون الصراع أساسا أوليا من أسس التفسير الإسلامى للتاريخ فإنه لا يجوز أن نستسلم لهذه « القدرية الصراعية » وإلا فإن محاولتنا علاج المسألة الحضارية سيكون من باب « الحتميات » العامة التى تحمل فى كثير من جوانبها جزئيات مقهورة لا تنضوى تحت قاعدة .

وأيضا فإن كثيرا من جوانب «الواقع» ــ وليس «الفكر» الذى نوافق فيه المؤلف تماما ــ يمكن أن يدخل تناقضها فى باب « التعاون » الضرورى لاستمرارية الحيـــاة فالصيف والليـــل والنهار والمرأة والرجل والسالب والموجب والفرد والجماعة : كل هذه الثنائيات وغيرها ثنائيات لا تسطيع الحياة أن تستمر دون وجود أى منها وبالتالى فهى (متقابلة متعاونة) وليست (متقابلة متصارعة) لأنه لا يستغنى عن أى من المتقابلين فيها وليس كذلك الشأن فى المتصارعين .

وتبقى المسألة الثالثة والأخيرة من تلك المسائل التى ركز عليها الدكتور فى تصوره لأبعاد التفسـير الإسلامى للتاريخ

« سقوط الدول والحضارات » وهى فى رأينا تشـبه أن تكون « حقلا تطبيقيا » لمرحلة « التنظير » التى سبقت فى المجالين السابقين : مجال (الواقعة التاريخية) ومجـال (المسـألة الحضارية) .

وفى هذه النقطة تقف الآية الكريمة « وتلك الأيام نداولها بين الناس » كمعلم رئيس فى التفسير الإسلامى لأسباب سقوط الدول .

وهذه « المداولة » تسـتهدف تمحيص « الجمـاعات البشرية » وإثـارة الصراع الدائم بينها وخلق التحـديات المستمرة ، وذلك لكى يتم — فى النهاية — إفراز حركة دائمـة متجددة فى التاريخ ترفض اليأس والهزيمة والتشاؤم مادامت الحياة أشبه « بالناعور » الذى يدور فى جميع الاتجاهات .

والفرق الكبير بين الموقف الإسلامى وغيره : هو أنـه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ما يمكن تسميته « الحتمية التفاؤلية » أى تقـرير حتمية الانحـلال والسقوط لكى تنشأ دول وتجارب أخرى بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمـة لذلك وأولها عملية « التغيير الداخلى » . (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

وهذا فى اتجاه الصعود .. أما اتجاه السقوط فإن للقضية أبعادا سياسية واقتصادية وأخـلاقية وعقـائدية فالقـاعدة والقيادات .

ـ على المستوى السياسى ـ مسئولية «أكابر مجرميها» و « القوم المجرمين » « فاستخف قومه فأطاعوه •• » وعلى المستوى الاجتماعى تبدو ظاهرة التناقض بين القول والفعل واحدة من أبرز أسباب السقوط « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » ••

وللمترفين ـ وظاهرة الترف بعامة ـ القدح المعلى فى الدفع بعجلة السقوط خطوات إلى الأمام كما أن فقدان القيم « الأخلاقية » والعزوف عن «الجهاد» ـ كهدف إيجانى حركى دائم ـ من أبرز الأسباب فى عملية السقوط •

* * *

وهكذا •• قدم لنا النموذج الأول (التفسير الإسلامى للتاريخ) عملا ـ مهما كانت ملاحظاتنا القليلة حوله ـ فهو عمل دال ـ كل الدلالة ـ على مستوى طيب من النضج فى الرؤية الإسلامية للتاريخ •

النموذج الثـــانى

العودة إلى الذات

للدكتور على شريعتى ترجمة الدكتور إبراهيم شتا

الصفحات ٣٦٨ صفحة ـــ نشر الزهراء للإعلام

تمهيد للعرض

كان الدكتور على شريعتى ـــ رحمه الله ـــ من خلاصـــة المثقفين الشيعة الذين يتمتعون بثقافة إسلامية وعصرية واسعة.

وكان حاصلا على الدكتوراه من جامعة فرنسية فى علم الأجتماع الدينى ، وألف نحو مائة وعشرين كتاباً على الرغم من أنه مات عن عمر لايزيد عن أربع وأربعين سنة .

* وخلاصة هذا الكتاب الذى نعرض له اليوم ـــ وهو كتاب العودة إلى الذات والذى يمثل خلاصة فلسفة شريعتى ـــ هى أن العودة إلى الذات ـــ وبالنســـبة للمسلمين الذات الإسلامية ـــ إنما يمثل ضرورة حتمية يمليها التاريخ وقوانين الحضارة .

المؤلف يجيد الدفاع عن القضية التى يطرحها .. قضية العودة إلى الذات ، مقدماً فكرة فى اتجاه أصيل يخالف بـــه

تماماً تلك التوجيهات الغربية العلمانية أو التوجهات الغربية الماركسية .

لكن الإسلام الذى يدعو إلى العودة إليه — على أساس أنه (الذات) هو إسلام (معدل) — كما يقول المؤلف — إسلام لحقه الإصلاح (!!) وأعيد فيه النظر بوعى ، ومرتكز على حركة نهضة إسلامية واعية . إنه الإسلام — كأيديلوجية — وهو الإسلام الذى بعث الوعى وأحدث المعجزة فى هذه المجتمعات (ص ٣٤) .

إن الذات بهذا الوعى هى الذات الإيجابية القادرة على الوقوف فى وجه التغريب الذى يريد تذويب ذاتنا فى ذات الغرب ، أو يريد محو ذاتنا فى صوفية ميتة كتلك التى توجه أغلب المستشرقين اهتمامهم إليها ويحققون كل مخطوطة من مخطوطاتها عشرات المرات فى حين أن (٧٩ ٪) من مخطوطاتنا العلمية تتحلل وتأكلها الفئران (ص ٤١) أو فى تبعية ذليلة تجعل كثيرا من مثقفينا يفكر فى مصير مجتمعه عن طريق إنفاق كل حكاته فى قضية الشعر الجديد والشعر القديم والفن للفن والسنيد يونسكو وجوزيف دى كاسترو وكأنهم يتعاطون الهيروبين ... ويريدون به علاج مجتمعهم ... فبكيت وكاسترو لاعلاقة لذاتى ولا لتاريخى بهما ... بل أنا أنتسب . كمسلم .

— فى رأى المؤلف — إلى أبى ذر ... الثورى الإنسانى ذى المنطلق الطبقى (ص ٤٦) .

(كنا نتمنى أن ينتسب المؤلف إلى محمد عليه السلام مباشرة) (!!) .

ــ إن الذات التى يدعو إليها المؤلف هى ذات تتبع من صميم الناس ... هى ذات إسلامية (نعم) وهى ذات مذهب شيعى (نعم) لكن أى تشيع ؟ أهو هذا الذى يعيش قومنا على أساسه ويؤمنون به ... لكن لا فائدة منه قط إنه من أهم عوامل الركود وعبادة التقليد والجهل وعبادة الأشخاص فالمطلوب العودة إلى الذات الإسلامية !!

العودة إلى أى ذات :

عندما بدأت مسيرة المسلمين فيما يسمى بعصر الاستقلال ظهر المصلحون التقدميون يطرحون رؤيتهم للذات المستقله الجديدة ... لقد اختلقوا لنا ألفاظا شبيهة بألفاظ الجن ... ولم يحاولوا الارتقاء بشعوبهم بلغة مفهومة بل اشتبكوا مع الألفاظ الرائجة المفهومة واعتبروا مصائب شعب جاهل كسول هى الحجاب واللحية والكرسى (وسيلة للتدفئة) وبخبث شوهوا حقيقة الحضارة فجعلوها مجرد إنكار الله وإنكار الروح والرسول والقرآن وعلى والحسين ثم القومية والأخلاق ... وقدموا أبحاثا فلسفية وكلامية سوفسطائية للفلاحين والعمال المساكين .

ولم يحاولوا زرع بذور الحضارة الحقيقية ... فقط (هدم الإيمان) ... مع أنهم يعلمون بالتأكيد أن الحضارة هى درجة التكامل فى القدرة على التفكير واتساع الرؤية وعمق

الروح ولطفها والنضج الاجتماعى وخلق الوعى الإنسانى والإحساس بالمسئولية ، ومعدل الثروة الثقافية والقفزات الفكرية والعقائدية واستقلال الشخصية واستعداد الخلق والقدرة على الاستغناء والنقد والاختيار وإيجاد ضمير تاريخى واجتماعى ...

إن الحضارة مزروعة ينبغى أن تبذر بذورها فى المدينة ثم تظهر وتنمو ... لكن (الثوريين — التقدميين) تجاهلوا — عن عمد بيقين — كل هذا وركزوا جهودهم فى تخريب الوجدان والروح وإعلان حرب دائمة على كل ما هو غيبى وكريم وأخلاقى فى حياة الإنسان .. !!

لقد نسى الماركسيون — عن عمد أو بلاهة — (وكلاهما خيانة) ما يقول به فرويد ويونج — بحق — بأن لكل مجتمع ما يسمى باللاشعور (وهو غير الوجدان الاجتماعى بل هو يعنى خصوصيات المجتمع المغروسة من رحلة فى التاريخ ... فليس المجتمع مجموعة أشخاص — فى الحقيقة — بل هو (شخص إنسان) والأفراد خلاياه (والمفكر شريعتى يفضل هنا استعمال كلمة (جماعة) بدل مصطلح (مجتمع) — ويفضل مصطلح (قدر التاريخ) بدل مصطلح (حتمية التاريخ) وهذا المجتمع (الجماعة) يخضع لوجود قوانين مسلم بها يستند عليها كل مجتمع ... لكن المؤلف لا يؤيد خضوع كل كل مجتمع أو أمر اجتماعى أو تاريخى وتأويلهما على أساس

القوانين الكلية والأحوال العامة لعلم التاريخ أو علم الاجتماع ويعتبر ذلك من المتعميم العام الخطر ونظرة كلية تؤدى إلى منزلقات ...

والحقيقة أن (شريعتى) تخبط عند هذه النقطـة ، فهو خلال صفحتين فقط يتناقض غير مرة بين الإيمان بالقوانين ، وبين عدم الإيمان بتطبيقها (٧٢ — ٧٣) ومن هنا — والكلام لشريعتى — فإننى (مع إيمانى بالوجود العلمى الـذى يعرف باسم التاريخ أو الأجتماع أى القوانين الثابتة والكلية التى يحيا المجتمع الإنسانى على أساسها ويتغير أعتقد أن تأويلها أى تطبيق هذه الأصول والمعايير الكلية الموضوعة سلفاً — ولو وضـعاً علمياً — على مجتمع معين يستوجب أن لا نعتبر أن هناك أوجه نقص على الإطلاق فيما نسميه فلسـفة التـاريخ (....) وكلما واجهتنا ظاهرة عميقة جداً ولا سابقة لها نقوم بتجريفها بشكل ما حتى تكون قابلة للتطبيق والتعليـل مـع موازيننا) (ص ٧٣) ..

ولم يستطيع شريعتى أن يعى أن الأمر ليس كذلك ، وأن علم فلسفة التاريخ (وأنا أستعمل كلمة علم عن عمـد وسبق إصرار) ليس أرقى من فلسفة الطبيعة ، وبالتالى فاكتشـاف ظاهرة جديدة لايجوز أن يؤدى بنـا إلى تجريفها لنخضعها لقوانيننا الصارمة بل يجب أن يؤدى بنا إلى إلقاء نظرة جديدة للقوانين التى بين أيدينا ، وغربلتها وتعديلها وإضافة حلقـات جديدة إليها .. ولا تعنى الحتمية التاريخيـة — من وجهـة نظرنا الإسلامية — (وأنا أؤيد شريعتى فى استعمال مصطلح

قدر التاريخ) (القانونية) التى لا نسبية فيها ، فمثل هذه القوانين لا تزال أبعد من طموحات العلوم الإنســانية ، بل والطبيعة أيضاً فى التطور الأخير ••• وأيضاً ••• من وجهة النظر الإسلامية فى تفسير التاريخ ـ ستبقى نسبة ـ دائما ـ للفعل الإلهى المطلق لا يســتطيع العقــل البشرى اختراق أسوارها ••• لأن اكتشاف كل مفاتيح الحركـة الكونيـة أو التاريخية لا يتناسب مع الطاقة الإنسانية ••• بل هى ليست فى حاجة إليه ••

لقد توســع كم المعرفة وكيفها ـ بيقين ـ فى الحقبـة الأخيرة ، ولا سيما فى القرن التاسع عشر ، لدرجة أن ما طرح من فلسفات التاريخ قد امتد أيضاً ، فكثرت لدينا المعلومات عن فترة ما قبل الحضارة (ولا أقول ما قبــل التاريخ ـ كما يقول شريعتى احتذاء منه بملك بن بنى) ، كما أن علم الآثار وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) قد أمدانا بفيض كبير مــن المعلومات المتصلة أوثق الصلة بالعملية الحضارية ••• لقــد تمزق رداء حتمية الماركسية ••• واقتربنا من الإيمان العقلى الكامل (بقدر الله) أو القدر التاريخى الذى يؤمن (بحتمية نسبية) ••• وقد تهاوت كل أطروحات وتنبؤات الماركسية ، ولم يعد ثمة أمل فى سقوط (الإمبريالية) بل الأمــل الأكبر الآن هو فى تكيف الماركسية مع كثير من معطيات التقنية والحرية الليبرالية •• هذا بالإضافة إلى اهتزاز الأسس العلمية للمادية بعد ظهور نسبية أنيشتاين وقانون (عدم الحسم) فى الفيزياء

الحديثة وحساب الاحتمالات والأعداد العظمى فى الرياضيات وتعميمها فى العلل الإنسانية ..

إنه — بعيداً عن أية مدرسة اجتماعية أو أيديلوجية — فلا بد أن تتوافر أسس مشتركة لطريق عودتنا إلى ذات واعية فاعلة .

وأهم هذه الأسس (كما يراها شريعتى) هى : —

١ — إن الوعى الاجتماعى اليقظ لقلب الأمـــة وضميرها هو الأساس ، وبدونه سوف تبقى كل حركة عقيمة ومجردة .

٢ — إن النـــاس فحسب هم الذين يستطيعون تحرير أنفسهم ، وينبغى أن تكون قيادة الحركة فى أيديهم مبـــاشرة ... وما لم يصل قلب الأمة إلى الحماس والانفعال التلقائى وما لم يصنع الشعب من بينه أبطـــالا أو بالتعبير القـــرآنى الرائع (أميين) وما لم يقدمهم إلى صفوفه الأولى ، فلا أمل فى التغيير ..

٣ — ضرورة الإيمان بأن الفقر أو الظلم وحـــده ليس سبب الثورة بل الإحاس بهما هو أساس التغيير ، ومن هنـــا فيجب تغذية هذا الشعور (ص ١٠١ بتصرف) ..

الحتمية التاريخية والإنســـان

بالطبع .. الحتمية التاريخية عندما تفهم على أنها مرادف للقضاء والقدر — بالطريقة الكونية الاستسلامية — فإن السلبية

ستكون هى النتيجة الحتمية .. لكن الإنسان هو الذى يستطيع بقدر نضجه وتصميمه ــ أن يفرض إرادته على إرادة التاريخ (وإلى هذا القدر ونحن نتفق مع شريعتى) (انظر بتصرف ص ١٠٢) لكن هناك ملمحاً كان من الواجب إيضاحه ، فثمة نوع من الجدلية الرائعة بين الإنسان (البطل) والتاريخ .. فهو ــ أى الإنسان ــ يستطيع أن يقف فى وجه التيـــار التاريخى أحيـــانا وكما أنه يحـــاور الطبيعة ويسخرها فى عملية إبداع رائعة تحرسها (سنة الله) ــ فكذلك يستطيع الإنسان القيام بهذا الدور مع التطور الاجتماعى والتاريخى ... وسيحصل على نسبة نجاح هى النسبة نفسها التى تفصـــل بين الحتمية التاريخية النسبية وبين (القدرية الإلهية) المطلقة ... لقـــد كنا نأمل أن يبرز شريعتى هذه الحوارية الرائعة ...

وفى هـــذا السياق نفســـه (ص ١٠٢) نحـــن لا نؤيد شريعتى فى هذا التعميم الذى يطلقة على تاريخنا الإسلامى ، حيث يلتقى (دون رغبة منه) مع أعداء هذا التاريخ .. وماكنا نأمل أن نجد عبارة مثل (البيئة السوداء المظلمة لعصر الخلافة وعصر المغول) مشحونة بكل هذه الألفاظ الداكنة عن (عصر الخلافة) .. دون أن يحدد لنا أية خلافة يقصـــد ؟ هل هى خلافة الأمويين الذين نتمنى أن لا يكون له موقف (أيديلوجى) منها لخلفيته الفكرية والذاتية (!!) أو خلافة العباسيين ؟ أو العثمانيين الذين نحمـــد لشريعتى أنه مدحهم ، وأنه كشـــف

حقيقة دور (الصفويين) الآثم تجاههم (حماية لأوربا من الزحف العثمانى) (انظر ص ١٢٢) وبالتأكيد فأنا أستبعد أن يقصد عصر الخلافة الراشدة (!!) ...

إن هذا التعميم (الظالم) — بالتأكيد — لا يجوز أن يصدر عن شخصية (واعية) بدور التاريخ التحضيرى ، مثل شخصيته على شريعتى !! — ومرة ثانية نجد (شريعتى) يحاول — لشعوره ربما بعدم الانسجام الذى ألمعنا إليه وأسميناه تناقضاً فى فهمه لحتمية التاريخ — يسرد علينا تفسيره مرة ثالثة أو رابعة — لحتمية التاريخ ، مقترباً — فى الحقيقة — إلى أقرب نقطة صحيحة وصل إليها — فى تفسيره لهذه الحتمية (ص ١٠٣) مشيرا إلى أهمية عنصرى (العلم والخلافية) كعنصرين مساعدين فى تغيير الإنسان لحركة التاريخ .

ويعود — شريعتى — (دون أن يتدخل المترجم) ليكرر المبادىء الثلاثة (انظر ص ١٠١ ، وص ١٠٥) وهى مبادىء الوعى الاجتماعى ، ودور الأمة كمجموع ، وأهمية الإحساس بالكوارث وهى المبادىء التى يراها (شريعتى) أساساً لعملية التغير والفاعلية ... وكلها تعود إلى تعميق دور (الوعى) الذى يسبق مرحلة التغيير .

الإحساس بالماضى والتغريب :

إن خطورة عملية التغريب لا تتمثل فقط فى التشبه فى الملابس أو العادات أو سلوكيات المرأة ... بل تتمثل فى

جماعة المثقفين الذين يفترض أن لديهم فكرا ، فاغتراب هؤلاء هو سبب الكارثة (القومية) (!!) والشلل الاجتماعى ، ذلك لأن الفئة الأولى من البشر الذين صاروا (أشياء) فإن الأوربة عندهم فى الجسم ، أما الفئة الثانية فهم (فكر) وعندما يشل الفكر ويفقد القدرة على التحليل والاختيار ويتحول إلى صورة (مستملى) للآخرين فالأمر مصيبة (!!) وعن طريق إلغاء هؤلاء المثقفين لأنفسهم ، وإنكاره دوره فى التاريخ واحتقار كل ما يمت إلى ذاته ، والفرار من كل ما يذكره بماضيه ، والتشبه بالآخرين ، يبحث لنفسه عن شخصية جديدة وصفات جديدة وقيم جديدة ••• ولهذا كان هم الاستعمار تخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها وفصلها عن تاريخها بواسطة الحيل العلمية وعلم الاجتماع المعقد الذكى ••• حتى يصل بالمثقفين إلى هذه المرحلة الخطرة •••• أى مرحلة ضياع (الأنا التاريخى) والذوبان فى (الهو الأوربى) ••• فمثل هذه المخلوقات (الجديدة) المفرغة من ماضيها وجذورها وقيمها — إذا ما فقدت التقليد للأوربى — والتشبه به — تصير وجوداً فاقداً للماهية •• لأنها فقدت وجودها الحقيقى وانفعالاتها الأصيلة ••• ومثل هذه المخلوقات التى فقدت نفسها لا تستطيع أن تقوم بدور فى حضارة أمتها •• لأن الإنسان وليد التاريخ والشخصية الإنسانية للفرد هى مجموعة الخصائص التى استمدها من تاريخه •

والشعوب التى فصلت عن تاريخها تدهورت إلى مستوى الأمم الفاقدة للحضارة والثقافة • (١١٥ — ١١٦) •

إن الاستعمار لكى يستطيع خلعنا من ماضينا لنكون ف (العراء) يروج بيننا خطورة ما يسميه (بالتعصب) لكى ننفتح على تراثه وحضارته ونترك ولاءنا لحضارتنا ونصبح عصريين مستهلكين ، وقد كان جمال الدين الأسد آبادى (ص ١٣٣) (بل هو الأفغانى — راجع محسن عبد الحميد ومحمد عمارة) يدرك خطر لعبة العصرية قبل قادة آسيا وإفريقيا التقدميين كلهم ••• ومن هنا وقف ضد تأسيس (بنك أمريكى) وضد صور العصرية الاستهلاكية التى تحول المدن الإسلامية إلى قصور فخمة وعمائر ومطاعم ومقاه ومحلات فخمة ، وتصبح المدينة مخزناً دولياً للسيارات ، ومعرضاً عالمياً لسيارات آخر موديل وأجهزة التلفاز والبلاجات ومؤسسات الزينة والنوادى والحدائق الأوربية الشكل ••• هذه (العصرية) الجاهزة تقدم للمسلمين والعرب البسطاء بديلا للحضارة والتحديث الصحيحين اللذين يعبران عن النضج الثقافى والمعنوى فى المجتمع وفق خطط وتضحيات وصبر وألم وأيديلوجية ورؤية كونية متحركة وإيمان ووسائل وحدة فى المجتمع (ص ١٤٣) •

— لقد ظن البعض أن الفلسفة والثقافة والعلوم التقنية والآداب والفنون هى التى تصنع الحضارات ، وهم فى غفلة عجيبة ، فلقد وضعوا المعلول مكان العلة •• فهذه الأمور (نتيجة) حتمية للحضارة الحقيقية ••• ومواد الحضارة ومعماريوها هم قادة الحركات الذين يكونون غالباً (أميين) لكن لهم رسالة اجتماعية (ص ١٤٦ بتصرف) ••• وقد يكونون

مثقفين ، لكنهم من القلة المفكرة التى تملك وعيا سياسيا واجتماعيا وتحس بارتباطها بمصير المجتمع وتهضم قضاياه الاجتماعية وحضارته !!

إنه المفكر (قبل أن يكون مثقفا) الذى يعرف مجتمعه معرفة حقيقية ومباشرة ويحس بآلام عصره وحاجته ومثله ، إنه الذى يستطيع أن يحدد فى أى مرحلة من التاريخ يعيش مجتمعه أو بعبارة أخرى ماهو (زمانه الاجتماعى) (ص ١٥٦) !! .

الاتحاد الاستعمارى الرأسمالى الشيوعى

فى الحرب العالمية الثانية تزوجت الرأسمالية الشيوعية، ووجدنا بعد قليل إيدن المستعمر وبن جوريون وجى موليه الاشتراكى يقومون بحملة واحدة .. ووجدنا أمريكا وروسيا — نتيجة هذا الزواج الحرام — يفرزان لنا ابنة غير شرعية نتيجة للزنا الذى حدث بينهما فى الحرب الثانية هى ما يسمى (بإسرائيل) التى يرعاها الطرفان على السواء حتى اليوم ... وبنشاط غريب وذكاء رأسمالى مشترك وبروح المسالمة والتعايش الذى تعانقته الشيوعية والرأسمالية ... فتصالحت الأطروحة وعكس الأطروحة وصارتا يداً واحدة وفكراً واحداً ... والشيوعية والرأسمالية كلتاها تضع فمها فى مخلاة البورجوازيه ... المخلاة المليئة من خراب الشرق ونهب آسيا وإفريقيا (ص ١٦٢) .. لقد يئست الشيوعية من صحة نبوءتها بانهيار الرأسمالية ، ولم يعد أكثر الماركسيين تفاؤلا ينتظر على الأقل (كما يقول شوارتز) فى المائة سنة القادمة

حركة ثورية فى البروليتاريا الأمريكية •• وبالتالى اضطرت الشيوعية بأى مهر من فضلات الرأسمالية وقبلت السفاح !!

وهكـذا فالرأسمالية والشيوعية لم يعـودا يختلفـان (أيديلوجيا) بل يختلفان فقط على تقسيم نحاسنا وأرضـنا وبترولنا •••

إن الماركسية فقدت (ذاتها) من زمان ، حتى المشهورون بغلاة الماركسية هم قوميون أكثر منهم ماركسيين ، و (كاسترو) قومى قبل أن يصير شيوعياً •• والشيوعية ستار يتلفـع به لحماية كوبا من الذوبان فى ساعة فناء ، أى فى مواجهة أكبر قوة فى التاريخ حسب علمنا ••• (واسألوا سارتر نفسه عن حقيقة كاسترو وقارنوه بسوكارنو وبن بيلا ونكروما ولومومبا •• فهم شيوعيون (مهنـة) لا عقيدة ••• لكى يقفوا ضـد الاستعمار ••• ولقد وقف ماركسيو فرنسا مع احتلال فرنسا للجزائر باسم (القومية) ••

إن الإسلام هو (قوميتنا) وهو الذى يستطيع أن يقود (بسبب روحه السياسية والثورية الخاصة) (شريعتى ١٨٩) بل ويتعهد بتحقيق رسالتين اجتماعيتين : إيجاد الرباط الثقافى المباشر للذات وملء الفجوة بين عوام الناس وخواص المفكرين ومن ثم فهم الواقع كما هو وإخضاعه للقيم أى بتغييره وفقها ••• وليس (بالعلم للعلم) كما يقول السذج الذين يزيدون التفرقة بين الواقع والقيم ، وظنـوا علم الاجتمـاع مثـل

الرياضيات الحديثة ... علم بلا أى التزام نحـو التغيير الحضارى ...

والارتبـاط بالقيم سيحول دون استشراء هذه الآفـة الخطيرة المدمرة للمجتمع برؤوسها المخربة الثلاثة : ــ رأس (الشللية) الثقافية أو المظلة الحزبية أو الأيديلوجيـه التى يحتمى فيها أهـل الفكـر والأدب ، ورأس التعصب للدين (الأنتلجنزيا) أى الاحتراف الجامعى واحتلال حملة المؤهلات الفارغين من الفكر للوزارات والمصـالح ... فهذه الرؤوس الثلاثة المخربة تقف بالمرصاد لكل مصلح أو مفكر محايد .. ومرة أخرى ــ وأثناء تحليله الرائع ــ يسـقط شريعتى فى هاوية الموقف المذهبى المسبق ، فيعمم حكمه ، ويدين ضـمناً مائة سنة (تسعين !!) حكم بنى أمية وستمائة سنة حكم بنى العباس .. فماذا بقى من تاريخنا ؟ (ص ٢٢٧) ــ لكن ــ بعيداً عن هذه التعميمات العـابرة ــ يكشف شريعتى بعلمية كاملة ــ تلك الشركة المتحـدة المجرمـة الجديدة ... شركة الرأسمالية والاشتراكية المتفقـة على تقسـيمنا والمختلفة ــ لا على مذهبية أو أيديلوجية ــ بل ــ فقط ــ على نصيب كل منهما منا ... !! وينجح شريعتى فى تعرية هذه الشركة المتحدة علينا كل النجاح .

* * *

يوضح شريعتى جانباً مهماً ... فقضية الميل إلى اليسار الاشتراكى أو الليبرالية أو الإلحاد قضايا ليست فى بسـاطة (الكوافير) أو رفع السروال ... ولا حتى من نوع القضايا

العلمية فى الفيزياء والكيمياء والتكنيك الرياضى ، فلها جانبها الفكرى والأخلاقى والإنسانى ••• ولها ارتباط بالخصائص الروحية ونوع الرؤية والضمير والشخصية (ص ٢٣٤) •••

وفى هذا السياق الجميل يسقط شريعتى مرة أخرى فى إحدى الجزئيات حتى يورد لنا حديثا بلا سند (وهو مما لم نعرفه) يقول فيه الرسول : (لو علم أبو ذر بما فى قلب سلمان لقتله) (ص ٢٣٩) (فأى صحابة هؤلاء) ؟ ولمقاومة التغريب لابد من فهم الغرب ــ فالتغريب كالسم يطرد بنفس الترياق (ص ٢٤٠) ••• لكن المعرفة المطلوبة هنا هى معرفة الثقات ••• لا معرفة الأقزام (وهذا ما لم يوضحه شريعتى) !!

إن مناخ التغريب والعلموية قد ظهر فى ظروف لا تمت إلى حضارتنا بصلة فهناك الجنوح المضاد للسلوك الكنسى الإرهابى والجهاد من أجل طرد الدين من مسرح الحياة والمجتمع والعلم ••• وهناك ــ فى عالم الكنيسة توجد علاقة عكسية بين الدين والحضارة وكانت الكنيسة هى الغطاء المعنوى والثقافى لنظام الإقطاع ••• ومن هنا كانت العلموية ••• وأين هذا من طبيعة حضارتنا ؟ دعك من رفض الدنيا والزهد الكاذب ومحاربة الشعور القومى (!!) والاستقلال السياسى وتدخل الكنيسة فى كل شىء ••• ومن هنا ظهر (الثالوث) الخطير الذى أفرزته العلمانية من خلال حركة مقاومة الطغيان الكنسى ••• ثالوث (رفض الالتزام) لصلته بروح الكنيسة ، والاعتماد على المشاهدة (الحسية) ورفض

الغيب (الكنسى) (والغرور) العلمى فى مواجهة الإذلال الكنسى السابق ••• وهذا الثالوث رد فعل واقعى للهيمنة الكنسية ، ولا علاقة له بنا لينقله بعض صبياننا •

ونحن مع شريعتى فى ضرورة تحديد (جغرافية الكلمة) (ص ٢٦٥) فقد تكون كلمة (القومية)معقولة فى المحيط الغربى للتخلص من الكنيسة وقد تعطى آثارا سيئة فى المحيط الإسلامى ، ومثلها كلمة (العلمانية وهكذا ••• وعلى مفكرينا تحديد جغرافية الكلمة وإطارها التاريخى حتى لا يتورطوا فى نقل أعمى يضيع كثيرا من الخطوات ••• بحركة عمياء غير واعية بالجغرافية والتاريخ ••) !!

وهكذا •• يقدم لنا (النموذج الثانى) عدداً من الإضافات فى حقل الرؤية الإسلامية للتاريخ •

النموذج الثالث

تأليف د / محمود محمد سفر

الحضـــارة تحـــد

جدة : تهامة ، ١٤٠٠ هـ ، ١٣٨ ص.

توطئـــة :

منذ طوى (مالك بنى نبى) — المفكر الإسلامى الجزائرى — آخر صفحاته ، راحلا عن عالمنا ، والواقع الإسلامى يعوزه ذلك المفكر الذى يبصر ما وراء عالم الأشياء ، والذى يـــرد الجزئيـــات إلى قوانينها ، ويعطى لمعنى الحضـــارة أعمـــاقه الصادقه الضاربة الجذور فى (الفكـــر) و (التـــاريخ) و (البيئة) و (الإنسان) و (الزمان) ...

لا أقول إن الدكتور محمود سفر ، الذى لم أقـــرأ له إلا (الحضارة تحد) و (التنمية قضية) استطاع أن يســـد الفـــراغ الذى خلفه (مالك ابن نبى) — لكنى أقـــول إن الدكتور (ســـفر) اســـتطاع أن يغرس بذوراً كثيرة على الطريق ، وأن يكشف لنا — بجلاء — عن أنه يملك « أدوات » المنهج التحليلى ، « القدرة الإبداعية » ، وأنه أهـــل — لو أمكنه أن يعتزل الدوامة اليومية قليلا — لأن يقدم الكثير ، بل ربما ليسد الفراغ الذى شغر بوفـــاة العلامة الجزائرى

مالك بن نبى ، ذلك الذى اعتبره الكثيرون ـ وأنا منـــهم ـ أقوى « منظر » حضارى ظهر بعد علامة المغرب عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) •• رحم الله الرجلين !!

الكتاب منهجياً : ـ

تغلبنى ـ أحيانا ـ تلك الطريقة التقليدية « الأكاديمية » على أمرى ، فأنظر للأعمـــال العلمية التى أتناولها بالمبضـــع نفســـه ، الذى يشرح به أستاذ الجامعـــة الأعمـــال العلمية الرصينة •

ومع أنى أعترف بأن هذه الآلية المنهجية قد تخطـــاها الزمان ، بل إنها قد نالت ما تستحقه من هجوم الإبداعيين ، إلا أن الحقيقة المجردة ، تفرض علينا أن نتعرف بأنها لازالت ـ على الأقل ـ مقياســـا ، أو مـــرآة ، تتكشف بها جوانب التسلسل والحبكـــة والنظـــام والمنطقية العقليـــة فى البحث العلمى ، فلا ضير أن يهمل الباحث المنهجية التقليدية ، لكـــن الخطر أن يظن أنه قـــادر على أن يهمـــل معطياتها الضرورية الأساسية ، فيهمل النظام والتسلسل والمنطقية • والحق ، أن المؤلف ، مع أنه أهمل تلك المنهجية التقليدية ، وآثـــر منهج العلامة مالك بن بنى •••• إلا أنه لم يهمل الشروط الأساسية المطلوبة فى البحث العلمى !!

بل إنـــنى حاولت أن أســـترشد بالمنهـــج التقليـــدى « الأكاديمى » فى البحث الذى أعرضه ، وقد وجدت أنه بشىء

يسير من الجهد يمكن أن نضع القضايا التى درسها الكتاب تحت فصول مرتبة ترتيبا منهجيا :

ـ فقضية التحدى الحضارى جوهره ، وديناميكيته ، وهى القضية الأولى ، يمكن أن نجعلها تمهيداً ـ بعد المقدمة ـ

ـ وعناصر التحدى الحضارى يمكن أن تكون عنواناً (للباب الأول) الذى يضم أربعة فصول هى جوهر الكتاب •

وهى فصول :

١ ـ شحذ الفعالية الروحية •

٢ ـ اسيعاب حضارة العصر

٣ ـ تبنى أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل •

٤ ـ حماية المنجزات الحضارية •

أما الباب الثانى (وهذا افتراض منا بالطبع فيضم النقطتين اللتين تناولهما الباحث ••• وهما :

١ ـ فكرنا والحضارة المعاصرة •

٢ ـ قيود البعث الحضارى •

ويأتى البـاب الثالث ، لتناول (الأركـان الأسـاسية للحضارة) وهى :

١ ـ تأثير الإنسان (الكثافة السكانية) .
٢ ـ تأثير المكـان .
٣ ـ تأثير الزمـان .
٤ ـ عنصر القدوة (مع بعض النماذج) .

ـ ثم تأتى الخاتمة ، وهى ماعنون لها الباحث بعنوان (بإيجاز) ـ وجدير بالذكـر أنى لم أغير شـيئا فى ترتيب موضوعات الكتاب ، وإنما أضفت فقط ذلك الهيكـل الهندسى (الأبواب والفصول) ، وقد وجدت ـ كما يجد معى القارىء ـ أن المنهجية مصانة فى الكتاب ، وأن الباحث قد نجح فى أن يقدم لنا بحثاً علمياً منهجياً ، ومـع ذلك متحـرراً من كآبة « الأكاديمية » وصرامتها ... !!

الكتـاب شـكليا :

يقع الكتاب فى ثمان وثلاثين ومائة صفحة من القطـع المتوسط ، وذلك فى طبعته الأولى الصـادرة عام (١٤٠٠هـ) عن (دار تهامة بجدة) وقد طبع الكتاب فى ورق جيد مـن النوع المصقول وصدر بإهداء ، ومقدمة ، كما زود بعدد من الصور ، وختم بالمراجـع العربيـة والأجنبيـة ، وبفهرس للموضوعات .

مـع الكتـاب :

فى مواجهة التحدى الخطير الذى تواجهه أمتنا فى العصر الحديث ، ولكى تستطيع أمتنا أن تجد لها مكاناً وسط عالم يقوم على الصراع الحضارى من أجل الحياة والبقاء ، وبتعبير آخر ، فى مرحلة الإقلاع الحضارى لأمتنا المسلمة يقف أمامنا سؤال خطير يحتاج إلى إجابة قوية وعملية :

— هل يستطيع مسلم اليوم بما يملك من عقيدة وإيمان وإمكانات مادية أن يعبر الفجوة الحضارية التى تفصله عن حضارة العصر ، وأن يستوعب حضارة العصر ، حتى يكون قادراً على وضع حضارة تحمل هويته وتعبر عن شخصيته وتفرض نفسها على الحضارات الأخرى ؟

— ويجيب المؤلف على هذا السؤال الأساسى بقوله :

— إننا نستطيع مواجهة هذا التحدى إذا ملكنا روح المسلم الأول الذى كان يتمتع بقوة العقيدة وعمق الإيمان وصدق العطاء .

وبجانب روح المسلم الأول لابد أن تكون لدينا البصيرة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع فى شراك التقليد والمحاكاة للحضارة الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها ...

أما العناصر التى تتفرع إليها استجابتنا للتحدى ، فتكمن فى مجموعة قدرات نوجزها فيما يلى .

١ ـــ القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة •

٢ ـــ القدرة على استيعاب حضارة العصر استيعاباً كاملاً •

٣ ـــ القدرة على تبنى أساليب الحضارة المعاصرة أو اتباع البدائل •

٤ ـــ القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة •

وفى الصفحات التاليه (٢٣ ـــ ٤٨) يفصل المؤلف القول كل عنصر من هذه العناصر على حدة •

ومادام (الإنسان) هو محور العملية الحضارية ، فإن شحذ فعاليته الروحية أمر جوهرى • ويرى المؤلف أن شحذ الفعالية الروحية يخضع لعدة عوامل أهمها دور « المنزل » ، ومناهج التربية الدينية ، وبرامج التربية الدينية ، وبرامج الانتماء الوطنى ووسائل بثها ، والقدوة الصالحة وما ترسمه من منهج عملى ••• ولعل المؤلف يقصد من (برامج الانتماء الوطنى) دور الإعلام ، لكننا كنا نؤثر ـــ عند هذه النقطة ـــ النص الصريح الواضح على دور الإعلام فى شحذ الفعالية الروحية ، فلاشك أن دور الإعلام ـــ فى هذا العصر أصبح خطيرا كل الخطورة ، بل هو أخطر من بعض الأدوار التى ذكرها المؤلف ، بل هو يستطيع الإسهام فى كل الأدوار التى ذكرها ، وهو فى المقابل ـــ من الطغيان ـــ بحيث يستطيع ـــ أيضاً ـــ إفسادها كلها •••

وعند هذه النقطة — أيضاً — كنا نؤثر أن يستعمل المؤلف مصطلح (التربية الإسلامية) بدل التربية الدينية ... وفيما سوى ذلك فنحن نوافق المؤلف فى كل ما ذكره بل إنه كان موفقاً غاية التوفيق ، فى كثير من جوانب تحليله ، ولا سيما عندما مزج مزجاً كاملا بين برامج التربية الوطنية ، وبرامج التربية الدينية (!!) ، وأكد ضرورة أن تتكىء الأولى على الثانية ، وأن تنفصل عنها من حيث المحتوى والقيم والنماذج والأمثلة (ص٢٦) .

ويرى المؤلف أن مهمة شحذ الفعالية الروحية للأمة منوطة بنوعية خاصة ... « إنها مهمة النفر القدوة المؤمنة بالله وحده إيماناً عقلانياً لا يخالجه شك ولا تحيط به ريبة ... إنها مهمة النفر القدوة التى تخاطب العقول وتوقظ المشاعر وتضع حلولا علمية عملية لمشكلات المجتمع ، كى يكون قادراً على مواجهة تحديات الحضارة » (٢٩ ، ٣٠) وهى أيضا مهمة الجامعات (ص ٣٠) ... — وليست مهمة السياسى (ص ٢٩)

— وليست هى كذلك مهمة حفظة التراث ، فهؤلاء مشغولون بتنظيم الكتب فى رفوف رءوسهم (ص ٢٩) .

وليست هى كذلك مهمة المهنيين المنشغلين بدقائق مهنهم (ص ٢٩) .

— ونحن فى الحق — لا ندرى سبباً لاستثناء طوائف معينة من مهمة شحذ الفعالية الروحية — أليس كل هؤلاء من

ذوى « المنازل » ؟ !! وبالتالى ، أليست الفعالية الروحية دعوة عامة يتحمل كل منا نصيبه فيها على قدر حجمه وقدرته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، اللهم إلا أن يكون المؤلف الكريم قد قصد الحديث عن (القادة الحضاريين) فيمكن — عند هذا المستوى — تخصيص طوائف قيادية معينة ••• وأيضا فإذا كان بعض حفظة التراث — كما وصف المؤلف : فالحق أن كثيرا منهم لم يكونوا كذلك ، بل كانوا — أيضا — قادة حضاريين ، وفقهاء واعين بالمهمة التاريخية والإسلامية المنوطة بهم ••• وبالتالى فلا يمكن استثناء هؤلاء من مهمة القيادة الروحية !!

ومرة أخرى — عند هذه النقطة — كان الأمر يحتاج إلى إشارة واضحة عن دور الإعلام والأدب والفنون فى شحذ الفعالية الروحية المطلوبة للأمة فى مرحلة إقلاعها الحضارى !!

* * *

إن المؤلف يقف أمامنا ثابت المنهج قوى الاستيعاب صاحب رؤية حضارية ممتازة عندما يحدثنا — فى النقطة التالية — عن استيعاب حضارة العصر ••• فالعلم — بلا شك — هو الأساس الذى قامت عليه حضارة العصر •• ونحن معه ، فى أن مدخلنا نحن المسلمين إلى هذه الحضارة لن يكون إلا بالعلم •• أى عن طريق شحذ الفعالية العلمية — بعد الروحية — للأمة •• ولعل هذا معنى من معانى بداية القرآن بآية (إقرأ باسم ربك) !!

وخـــلال الرحلة مـــن « كبلر » إلى « نيوتن » إلى « آينشتاين » استطاع الغرب أن يخرج من مرحلة « التكديس » العلمى إلى مرحلة « التقنين » العلمى !!

ـــ وأمتنا مدعوة إلى أن تمر بسرعة ـــ بهذه الرحلة ـــ من خلال استفادتها الكاملة ، ومعاناتها الصـــادقة ، لعمليـــة الميلاد العلمى ، ومن خلال مزاوجتها ـــ أيضا ـــ بين العلوم والحرف المهنية ، وإدراكها أن أرباب التكنولوجيا الحديثة لن يسمحوا بتعليم دقائقها لآخرين ، (وهذا هو الواقع فى عالمنا المعاصر للأسف الشديد) إننا يجب أن نعى جيداً أنه لن يمكننا الحصـــول على دقائق التكنولوجيا المعاصرة حتى ولو دفعنا من أجلها المال الوفير !! (ص ٣٤) ..

والمؤلف يصل إلى قمة المواجهة الصادقة لواقع أمته حين يقول لها :

« إن ما يسمى بنقل التكنولوجيا من دولة متقدمة إلى دولة متأخرة هو فرية كبرى صدقتها شعوب العالم الثالث ، وظنت معها أن التكنولوجيا سلعة تبيعها لها الأمـــم المتقدمة من أجل المـــال » (ص ٣٤) .

« طريقنا إلى التكنولوجيا الحديثة لابد أن يمر بمراحل علمية تشبه التطور الزمنى فى بلاد الغرب » (ص ٣٤) .

« إن الذى يزيد النفس حسرة هو أن شعوب العالـــم الثالث ما زالت تعيش فى هذا الوهم الكبير بعد أن نسجه لها

خيال نفر من أبنائها ممن فقدوا صفاتهم ، وافتقدوا خصائصهم أمام انبهارهم بحضارة الغرب وتعلقهم بتقدمه التقنى فانخدعوا له وخدعوا شعوبهم به » (ص ٣٥) •

وينتهى المؤلف — بعد إيضاحه لأبعاد هذه الرؤية الرائعة إلى أن (استيعاب حضارة العصر يعنى استيعاب الأصـــول والطرائق والنظم ، أما الدقائق فهذه لا يمكن لأصحاب الحضارة منحها وإنما تدرك بالممارسة الواعية والتفاعل البناء) (ص ٣٧) !!

والأمة المسلمة ، وهى تعالج عملية التطور ، لابد لها أن تملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المطلوبة ، وأن تعى أن النظـــم الحاكمة لا تولد فتيـــة متكاملة ، بل تبدأ طفلـــة وتنمو مع التجربة والمحاولة والخطأ والصواب •

وأمامها خياران فى هذا السبيل ، أن تتبـــنى المؤسسات الحضارية الغربية مع تعديلها — عن طريق الممارسة والتجربة — بما تحقق المبادىء والقيم والأخلاقيات الذاتية ••• (ص ٤٢) •
(وهذا فى رأينا صعب) !!

— أو أن تبدع البدائل (ص ٤٢) وهذا فى نظرنا هو الحل الحضارى الأمثل ••• ونحن مع المؤلف فى أن عمليـــة البدائل يتولاها أهل الاختصاص فى ظل مراقبة حماة الحضارة الفقهية الواعية •

وأثناء عملية المعاناة الحضـــارية والمـــواجهة ، وإبداع

البدائل ، يجب أن لا نغفل عن (حماية المنجزات الحضارية للأمة) بالتركيز على جانبين :

— جانب الحماية الذاتية عن طريق ذات الفرد المسلم المواطن المتجاوب حضاريا ، والواعى بسنن الله فى الكون وبآفات الحضارة .

— وجانب الحماية الخارجية المنوطة بأجهزة الدفاع العسكرية والاجتماعية والدفاع الفكرى والنفسى (ص ٤٨) .

وهنا — وعندما نقوم بكل هذه الشروط — تكون رحلتنا إلى الحضارة ، منذ الإقلاع ، وحتى الوصول ، رحلة آمنة تمشى فى الطريق المستقيم .

— فى الشوط الثانى من رحلة المؤلف ، بعد أن قدم لنا بسطا طيباً لعناصر التحدى الحضارى للأمة ، يواجه المؤلف — معنا — قضية من القضايا الأساسية فى عملية الرؤية الواعية لمعالجة التحضر ... إنها قضية (فكرنا والحضارة المعاصرة) ، ومروراً بتعريفات ابن خلدون للحضارة ، وبما اصطلح عليه كثير من المؤرخين من التفرقة بين مصطلحات الحضارة والمدنية والثقافة ، على أساس أن الحضارة مستوى معين من الرقى تشمل المصطلحين التاليين ، أما المدنية فتختص بالجانب المادى ، وأما الثقافة فتختص بالجانب الفكرى ...

— مروراً بهذا كله يرى المؤلف من منظور إسلامى أن الالتحام قائم بين هذه المصطلحات ، وأن مدلول الحضارة

مزيج من الرقى فى مجالات شتى كالأخلاق والسلوك والتربية والعلوم التجريبية والبحتة (ص ٥٠) ..

وفى ظل هذا الفهم الشمولى يجب على الإنسان المسلم أن يتمسك بمفهوم الحضارة الفكرى الشامل ، وأن لا نفرط فى التسلسل المنطقى لإنشاء الحضارة ، أو قل — إن شئت — لبدء دورة حضارية جديدة (ص ٥١) فالفكر هو البداية ، ثم تأتى المدنية بصور تقدمها المختلفة ، وليس العكس !!

وليس الفكر المقصود هنا — إلا فكر القرآن والسنة وما انبثق عنهما من اجتهادات ونظم وقيم حياة أصيلة ومبتكرة ... أما الفكر التراثى بتراكماته الفكرية والإيجابية والسلبية ، فمن الضرورى إخضاعها لعملية غربلة لا تفريط فيها ولا إفراط على ضوء قيم القرآن والسنة . والموقف نفسه يجب أن نقوم بــه فى غربلة الفكر المعاصر ، ومن خلال :

١ — القرآن والسنة .

٢ — غربلة الفكر التراثى (الماضى) .

٣ — غربلة الفكر المعاصر (الحاضر) .

من خلال هذه المنظومة نستطيع أن نصل إلى الفكر الذاتى ، لكى يكون منطلقنا فى البدء الحضـــارى صـــحيحاً ومستقيماً وشاملا . (الصفحات ٤٩ — ٥٥)

وهنا تبدو قضية (جمود الفكر) من أبرز (قيود البعث

الحضارى للأمة) (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) (البقرة ١٧٠) •• وبدهى أنه « عندما تفقد الأفكار ديناميكيتها تبدأ النظم فى فقدان ديناميكيتها ، وهكذا دواليك لتصل الأمة إلى ما نسميه فترة الانحطاط حيث تتجمد الأفكار والنظم معاً » (ص ٥٨) •

ويتبع هذا الجمهود الفكرى ، ما يسميه المؤلف (القيود الاجتماعيه) أى صور الجمود ، التى تتجسد فى بعض العلاقات الاجتماعية ، وتعوق الضمير الفردى من الانطلاق وتحده فى إطار الضمير الاجتماعى ، ولو كان مخطئاً (ص ٦١) (ومن صور المجاملة والتواكل والإسراف فى الاستهلاك فى المناسبات والأعياد والركون إلى الكسل وعدم إتقان العمل وعدم المحافظة على المواعيد •••) (ص ٦١ ، ٦٢) •

وكل هذه قيود اجتماعية ليست من الإسلام فى شىء !!

ويقتضى منا البعث الحضارى تغيرها ، حتى لا تمنعنا من الانطلاق !!

* * *

والإنسان !!

هو الثروة الكبرى التى يجب أن نحرص عليها فى كل مراحل إبداعنا الحضارى •

وكما أشار المؤلف — سابقاً — إلى الإنسان عند شخذ

الفعالية الروحية والعلمية •• ها هو — مرة أخرى — يعود ليتحدث عن « الإنســان » من زاوية ثالثة ••• إنهــا زاوية (الكثافة السكانية) ، وعلى عكس ما يرى المسحوقون فكريا يتجه المؤلف صوب الحقيقــة الكبرى ، وهى أن (الكثــافة السكانية) شرط من شروط انطلاقتنا الحضــارية •• لكــن بشرط تحقيق الفعالية الاجتماعية ، أى قدرة الإنســان على العطاء والتضحية من أجل أمته ووطنه « فالكثــافة السكانية المثلى سوف تحددها طبيعة العصر ، ولكنها لا بد أن تقــع بين قيمتين أساسيتين : قيمة صــغرى أى إفــراز الكــوادر الحضارية المطلوبة ••• والقيمة الكبرى أى عندما يصل المنحنى الحضارى إلى حالة تشبع فيصبح هناك فائض بشرى لاتستطيع الإدارة الحضارية أن تستوعبه فيصبح معوقاً لابد أن تتنبه لخطورته أجهزة الحضارة فتعدل من نفسها من أجل استيعابه الكامل » (ص ٦٤) •••

وهنــا نصل إلى النتيجة الصحيحة التى انتهى إليهــا المؤلف : « أن الخطأ ليس فى الكثافة السكانية ••• وإنما بأن تعدل الإدارة الحضارية نفسها » « ومن الغريب أن نشــاهد فى مجتمعات نامية من ينادى بإصلاح الأمور عن طريق تحديد النسل بينما الأجدى هو زيادة الفعالية الاجتماعية للفــرد » (ص ٦٦) ••

والبيئة •••• بعد الإنسان — بما يكمن فى أعماقها وبما ينمو فوق سطحها ، تؤثر تأثيرا بالغاً فى قيام حضارة وبقــاء أخرى ••• وللبيئة دورها الجمالى ، عن طريق الضمير الجمالى

الذى ينبثق من المكان بخصائصه ، ويتفاعل مع الإنســان ـ فيرتبطان ـ معا ـ برباط وجدانى .

ولقد قامت معظم الحضارات حول الأنهار وفى مناخات معتدلة وكان ذلك لازما للتفاعل الحضارى ، مما يجعل أمامنا (شرطاً مكانياً) فى عملية التحضر ، وهو ضرورة أن يصــل التفاعل بين الإنسان والمكان إلى مستوى العصر (ص ٨٠) لأن هذا يعنى مزيداً من الكنوز والكشوفات ... والتسخير ... والعطاء .

وكما للمكان تأثيره (فللزمن) تأثيره أيضا . وبتطبيق عنصر الزمان فى عملية تطورنا الحضارى يلزمنا السير بمعدلات النمو الزائدة ، عبر مراحل التطور ، حتى نسد الفجوة التى تفصلنا عن حضارة العصر ...

ـ من مرحلة التكدس التى تتميز عادة بالبطء .

ـ إلى مرحلة الاستيعاب ... للجوهر .

ـ إلى مرحلة الإبداع ، حيث تجد الأمة نفسها وجها لوجه مع الينابيع الأساسية للإبداع الإنســانى المعــاصر . وتسرع حينئذ مسيرتها رويدا رويدا ... فكلما حققت نصرا زادها ذلك ثقة ورسوخاً ... فإذا واصلت العمل مدركة لكل مقومات ومتطلبات قيام الحضارة فإنها ستصل لا محالة إلى مرحلة الإبداع ، حيث يصبح معدل نموها « أسيا » متزايدا

ونعنى بالنمو « الأسى » هنا أن يحدث تطور سريع ومبدع فى فترة زمنية قصيرة نسبيا إذا قيست بمقدار التطور والنمو الذى حدث خلالها (ص ٨٥) ..

وأخيرا :

يعرج الدكتور المؤلف على مؤثر آخر فى رحلة الإبداع الحضارى ، بعد الفكر والزمان والمكان ... إنه تأثير النموذج البشرى فى المسيرة الحضارية ..

فعن عودة الأمة إلى الصفحات المشرقة من تاريخها تستطيع الأمة أن تكسب القوة والمناعة ضد أمراض المواجهة الحضارية ، وأيضاً فإن النموذج البشرى الفردى أو السلوكى العام يستطيع أن يجعل مشوار التحضر واثق الخطأ عميق المردود ... قادراً على الفهم البصير للحاضر بأحداثه ومنجزاته ، والمستقبل بتطلعاته ، وآماله (ص ٨٨) .

ومن خلال نموذجين بشرين ، أحدهما فردى ، والآخر جماعى تمثل فى الجماعة المؤمنة كلها ...

من خلال (سلمان الفارسى) كنموذج للسعى الدءوب نحو الحضارة الحقة ، وتخطى كل العقبات الحضارية حتى الوصول إلى مرحلة ثبات الإيمان أمام سائر العقبات ...

ومن خلال (موقعة بدر) التى مثلت منعطفاً خطيرا فى التحدى بين بقايا حضارة جاهلية متهالكة ، وبين حضارة

إسلامية تعيش مرحلة الميلاد ، وما ضربه الرسول والمسلمون فى هذه الموقعة الخالدة الفاصلة من مواقف العظمة ، ومشاهد البطولة ، وأسلوب القيادة ومدى تجاوب الجماعة مع قائدها .. والتضحية فى سبيل المبدأ والحضـــارة الجديدة بكل قيم الحضارة المتهالكة وموروثاتها وعلاقاتها وموازينها .. نقول :

إنه من خلال هذين النموذجين اللذين آفسح لهما الكاتب بحقهما من الصفحـــات (٩٣ ــ ١١٣) نجـــح المؤلف فى أن يعطينا من خلال (الحركة الواقعيـــة) النموذج الذى كان تجسيداً حياً للمبادىء النظرية التى قدمتها حضارتنا الإسلامية فى هذا الطور من أطوار المبعث ، وإن حضارتنا لقادرة دوماً على إعطاء النماذج وتقديم النداء الحضارى الكافى للجماعة المؤمنة خلال رحلتها فى التاريخ .

وأخـــيراً :

فإن هذه الهفوات لا تنقص من قيمة هذا العمل الطيب الذى قدمه للمكتبة الإسلامية وللفكـــر الحضـــارى ولأمتنـــا المسلمة المؤلف الأستاذ الدكتور محمود محمد سفر . لقـــد جعلنا المؤلف نعود من جديد لنشم عبق فكـــر أصـــيل عميق لا تنقصه المنهجية السليمة ولا الرؤية الإســـلامية الشـــاملة بعد أن افترشنا بعد مالك بن بنى تلك البحوث العرجاء وهذه الأكاديمية التى تشبه كما يصفها (اشبنجلر) عملية مســـح

الأحذية . فضلا عن الفكر الدخيل الذى جلب لروح امتنا وعقلها من الأمراض ما تحتاج معها إلى أطباء نطاسيين من هؤلاء الأطباء الذين يفقهون شروط الحضارة ومشكلات النهضة ويستطيعون الوقوف — بوعى وصمود — فى مهب المعركة .

النموذج الرابع

ودخلت الخيل الأزهر

تأليف / محمد جلال كشك

(منهج إسلامى لمعالجة قضايا التاريخ الحديث)

فى أكتوبر ١٧٩٨ دخلت الحقول الفرنسية الأزهر وأعمل الجند الفرنسيون السيف فى طلبته وشيوخه ونهبت ومزقت مخطوطات عمرها عدة قرون •

ما قيمة هذه الحقيقة اليوم ؟ ألا تكفى هذه المدة الزمنية التى بيننا وبين سنة ١٧٩٨ لوأد أية قيمة لهذه الحقيقة التاريخية ؟ أولنا نعيش الآن فى غزوة أخرى وقد عشنا منذ الغزوة الفرنسية إلى اليوم عدة غزوات شبيهة بها ؟

الحقيقة •• أنه كان فى الإمكان أن تمر الغزوة الفرنسية كما مرت الغزوات الأخرى لكن قدر لهذه الغزوة أن يرتبط بها شىء مهم يتعلق به مستقبلنا •• بقضية وجودنا التاريخى كأمة وكحضارة •

إن تناول الغزوة الفرنسية ــ من هذه الظروف بالذات ــ عمل يتعلق بهذه الظروف نفسها ويتعلق بقضية خروجنا من هذه الظروف •• وإذا كان للغزوة الفرنسية أثر إيجابى فهو

أنها فرضت على العقل العربى والإسلامى هذا السؤال وبإلحاح : —

كيف الطريق إلى المستقبل ؟

وتتصدى للإجابة على هذا السؤال مدرستان .. قد أصبحتا واضحتى المنهج والسمات .

الأولى : هى المدرسة الاستعمارية التى وصلت بالأمة العربية إلى حزيران ١٩٦٧ وترى فى (التغريب) — الذوبان فى الغرب — الحل الوحيد .

والثانية : هى المدرسة الوطنية التى حرمت بفعل الظروف الاستعمارية الكثيرة من التعبير العملى عن رأيها والتى ترى فى « التحديث » إمتلاك كل المعرفة التى يتفوق بها الغرب لإنتاج ما تحتاجه أمة من الأمم — الطريق لتحقيق هذا المستقبل .

وبإيجاز فإن المدرسة الاستعمارية ترى ضرورة « شراء الحضارة » أما المدرسة الوطنية فترى ضرورة « صنع الحضارة » .

وترى المدرسة الاستعمارية أن القومية والتقدم والتحديث والتحرر — لا تكتب معانيها وسلوكها إلا من خلال التعاون مع المحتل وبمعونته وإرشاده .

وترى المدرسة الوطنية (الإسلامية) أن هذه المفهومات لا معنى لها إلا إذا كانت مرتبطة بسلوك وطنى مقاوم للوجود أو النفوذ الأجنبى بكافة أشكالهما .

وهكذا تتدرج كل القضايا فى خطين واضحين •• الخط الاستعمارى والخط الوطنى •• ومنذ غزوة نابليون والأحداث كلها تفسر وفقا للانتماء أو للتأثير بإحدى هاتين المدرستين •

ونعود قليــلا إلى الخلفية التاريخية التى عاشتها مصر قبــل مقدم الغازى الفرنسى بونابرت •• هــل كانت مصر مستعمرة تركية ؟ ولكى نجيب — علمياً — على هذا الســؤال لابد لنا من أن نتفق على معنى « استعمار » •• الاستعمار — تاريخيا — حالة معينة من التطور الاقتصادى •• تقف فى قمة التطور الرأسمالى •• فهل كانت الدولة العثمانية واقفة فى هذه القمة ؟ بالطبع لا •• لقد كانت أفقر من بعض البلاد التى يقال إنها خاضعة لها والعلاقة الرسمية الوحيــدة التى كانت تربط مصر وتركيا هى الخطبة للسلطان وحق السلطان فى تعيين الوالى •• والوالى الذى لا يملك من الأمر شيئا والذى كان المماليك والعلمــاء — بل والعامة — يملكون عزله فى أى وقت ودون إبداء الأسباب ، وقبل الغزوة الفرنسية استقل مملوك فعلا بمصر (على بك الكبير) ولولا خيانة زوج ابنته لمــا استطاع العثمانيون مواجهتــه •• بل إن المماليك ظنــوا أن الغزوة الفرنسية كانت بتدبير من السلطان العثمانى وواجهوا مندوبه البائس فى مصر باتهامهم هذا ••

فهل جاء نابليون الغازى لتحــرير مصر من الأتــراك المستعمرين ؟

أليس هذا القول من اللعب بالألفاظ أو اللعب بعقولنا ؟ من كان يحكم مصر فى ذلك الوقت ؟

إن المماليك الذين ارتبطوا نفسياً مع المصرين بميثاق غير مكتوب يتلخص فى الدفاع عن حدود البلد كانوا هم الحكام الحقيقين لمصر ، وفى عين جالوت ودار ابن لقمان أدى المماليك دورهم فى حماية مصر .. فأخذوا الخراج وحكموا البلاد . لكن عندما سقطوا فى مرج دابق أمام السلطان العثمانى رفض الفلاحون المصريون دفع الضرائب وقالوا لهم :

« وما نعطى الخراج حتى يتبين لنا إن كانت البلاد لكم أولا بن عثمان حتى لا نؤدى الخراج مرتين » وقد ظل المماليك أوفياء للميثاق حتى عصر مشايخ البلد الذى لمع فى قاع انحطاطه مراد بك وإبراهيم بك اللذان شكلا طبقة منتصرة داخلياً فى مجتمعها وغير منتصرة وطنيا ضد العدو القومى .. فسقط ميثاق الشرف من أساسه .

وهكذا كانت السلطة من حق المماليك المطلق مقابل توفير الأمن الداخلى والخارجى للبلاد بحكم ميثاق الشرف غير المكتوب .

هذه هى الأرضية الاجتماعية التى شكلت عنصر الوجود فى مصر قبل الغزو الفرنسى .. ولا ندرى كيف فات الأستاذ (جلال) إبراز الطبقة العاملة فى غير الزراعة من غير العلماء كالتجارة وأرباب الصنائع الأخرى !! .

الحق أن هذا القطاع كان موجودا أيام الغزو الفرنسى والغزو الانجليزى !!

ـــ ويصل نابليون إلى الأسكندرية ليواجهه هذا المجتمع بهذا التركيب •

وعلى الرغم من كل البيانات والمنشـــورات والتحليـــلات التى صاحبت وأعقبت الغزوة إلى يومنـــا هذا كان نابليـــون صريحا فى تحـــديد مهمته عنـــدما قال : « سأستعمر مصر » انطلاقا لبناء امبراطورية شرقية نابليونية •• ومنذ دخـــول الحملة إلى الأسكندرية ـــ بل قبـــل دخولها الأسكندرية فى مالطة ـــ أثبتت أنها حملة بربرية فهؤلاء الذين جاءوا لتحرير (المصريين) من المماليك كان أول ضحاياهم حاكم الأسكندرية (المصرى) الذى رفض الحماية الفرنسية فأعـــدموه بعـــد التعذيب والحبس والتشهير •

وبهذه الوسائل وغيرها حاول نابليون (تغريب) مصر والتمسك بالحقيقة الحضارية الخطـــيرة (الاحتفـــاظ بالدين والتقاليد هو الطريق الوحيد لمسايرة العصر) •

ـــ وفى ثورتى القاهرة الأولى والثانيـــة طرقنـــا بعنف أبواب الثورة الصناعية (التحديث) من خلال مقاومة المحتل •

ـــ ولأن الحاجة أم الإختراع فقد اضطر المدافعون إلى صنع البارود والمدافع وأنشأوا معملا لإصلاح الأسلحة والمدافع ومعملا آخر لصنع القنابل إلخ •• ولولا مجىء محمـــد على وانحرافه بالأمة عن الخط الصحيح والسير فى ركب التغريب وشراء الحضارة المعلبة لتمكنا من الوصول إلى وضع أفضل •

وعندما صب نابليون نيران (الثورة الفرنسية) على الأزهر كان نابليون الذكى (الدجال) يعرف هذه الحقيقة أكثر من صبيان المبشرين المعاصرين !!

لقد كان يعرف أنه بضربه الأزهر يضرب قيادة الأمة الصحيحة .. يضرب تاريخها ومستقبلها الصحيح .. يضرب وجودها كله .

أليس هذا قمة « التغريب » ؟ !!

الحقيقة أن أية أمة من الأمم لابد أن تتوافر لديها إرادة التقدم لكى تتقدم ، ولا بد أن يبتل جسمها بألم . وتصطدم بإمكانية الغرق .. فتضطر إلى الاستماتة بحثا عن الحياة .

وهذا هو الحل الحضارى الوحيد لمشكلة التقدم ، وهذا ما تنتهى إليه هذه الدراسة الأصيلة .

* * *

وكما تجلى لنا فقد ترجمت هذه النماذج الأربعة عن المستوى الذى وصل إليه العقل الإسلامى فى رؤيته للتاريخ .

ولئن كنا نعتقد الرؤية التمحيصية النقدية للحركة التاريخية الإنسانية العامة تلك التى نبغ فيها أمثال (أرنولد توينبى ، وشبنجلر) وإلى حد كبير (ولاديورانت) فى سرده لقصة الحضارة من وجهه نظر أوربية ــ لئن كنا نعتقد مثل هذا اللون الإبداعى فى المنهج التاريخى الحديث نتيجة افتقادنا

للروح العلمية التى تغذيها مؤسسات ، وتذلل صعوباتها هيئات وحكومات ، فإننا نعتقد أن الشوط الذى قطعة المنهج الإسلامى — (مع إمكانايه البسيطة ومع الضغوط الفكرية التى من شأنها أن تفرض ألوانا من الضبابية فى الرؤية والنزوع إلى السهولة فى العمل العلمى) — شوط طيب يدعو إلى الأمل فى رؤية أشمل وأعمال علمية تستطيع أن تقدم ما نستطيع أن نقول عنه مطمئنين ومعتزين •• إنه (التفسير الإسلامى للتاريخ) بكل شموله وأبعاده وربطه الوثيق بين معطيات الماضى واستشرافات المستقبل •

الفصـــل الثـــانى

موقف الفكر الإســـلامى المعـــاصر

من الحضـــارة الحديثـــة

توطئـــة :

إن اللقاء بين حضارتين فى بعض منعطفات التاريخ عملية من أخطر العمليات التى يمر بها موكب البشرية الطويل •

وعندما لا يكون اللقاء متكافئاً ، فإن القضية لا تحتاج إلى معاناة فى البحث ، فغالباً ما تكون النتيجة معروفة ، وهى انسحاق الحضـــارة الضعيفـــة تحت وطـــأة الحضـــارة القوية ••• وحسب الضعيفة أن تترك بصمات على جسد الحضارة الغالبة ، سواء كانت هذه البصمات ظاهرة أم غير ظاهرة •

أما إذا كانت الحضارتان قويتين ••• فإن البحث ــ فى هذه الحال ــ يحتاج إلى عناء ودأب ورؤية نافذة ••• وقد تكون عناصر القوة مختلفة ، ولكن المهم أن تكون ثمـــة شروط مؤهلة للبقاء والصمود فى كلتا الحضارتين ، بحيث تتحقـــق فرصة كافية للصراع ، ولا تهزم إحدى الحضارتين فى نهـــاية الشوط ــ ولو بعد خمسة قرون ــ كما سقطت حضارة رومـــا فى رأى جيبون ، مؤرخ سقوطها الكبير !!

ولا يستطيع إنسان أن ينكر أن (الحضارة الأوربيـــة الحديثة) حضارة من أقوى الحضارات التى شـــهدها تاريخ الإنسان على هذه الكرة الأرضية •

وعلى الرغم من أننا ندرك أن لكل حضارة (عناصر قوة) ولربما لم تستطع حضارة أوربا أن تصل إلى ما وصلت إليه بعض الحضارات السابقة حتى فى المجال العلمى البحث ... كفن المعمار وعلم التحنيط عند الفراعنة ... ومع ذلك فمما لا شك فيه أن هذه الحضارة – فى جملتها – قد تجاوزت كل الحضارات فى المجال العلمى والمادى بآماد طويلة .

إنها الحضارة التى جعلت العالم يبدو (قرية صغيرة) بفضل وسائل المواصلات والإعلام اللذين بلغا شأوا بعيداً لم تحلم به أكثر الحضارات .

وقد التقت هذه الحضارة التقاءها الأخير بالحضارة الإسلامية على مشارف القرن السادس عشر الميلادى ، بعد أن كانت قد هزمت أمام المسلمين قبل ذلك ، وبعد أن كانت قد جلست – فى أدب تارة وفى دموية تارة أخرى – عند أقدامهم تتلمذ عليهم فى العلوم والآداب والفنون ، سواء فى الأندلس (٩٢ – ٨٩٨هـ – ١٤٩٢م) أم فى عدد من جزر البحر الأبيض المتوسط ، مثل صقلية وكريت ورودس وقبرص وبعض مدن جنوب إيطاليا ، أم فى الحروب الصليبية التى استمرت قرابة قرنين من الزمان ...

وقد أدركت أوربا – من هذه اللقاءات – أنها أمام حضارة قوية ذات بناء روحى ومادى قوى ، وأدركت – كذلك – أن البناء النفسى والفكرى للأمة المسلمة هو السر القوى فى

صمودها التاريخى ، وفى إفلاتها من محـاولات الإبادة التى تعرضت لها ــ غير مرة ــ على يد التتار والصليبيين •

فلما كان لقاؤها الأخير بهذه الحضارة على مشارف القرن السادس عشر كان لديها وعى تاريخى يكفل لها معرفة خصمها الذى سبرت غوره فى الحرب والسلم على السواء •••

وبينما كان هذا حال الحضارة الأوربية ــ كان الأمـر على العكس بالنسبة للحضارة الإسلامية ومفكريها • فهؤلاء المفكـرون المسلمون فى مجموعهم على امتداد القرنين اللذين بزغت فيهما ــ بوضوح تام ــ شمس الحضـارة الأوربية ، (وهما القرنان التاسع عشر والعشرين) كـانوا بعيدين ــ إلى حد كبير ــ عن معرفة الخصم الذى يقاومونه ، وعـن معرفة أسرار قوته ، وعناصرها • ولم يحاولوا باتفاق ولـو نسبى ــ أن يدرسوا الخصم ، وصولا إلى معرفة أفضـل أساليب مقاومته • وقد جنحت مواقفهم بالتالى إلى رافضين لهذه الحضارة بالمرة ، وخيل إليهم أنهم قادرون على دفـن آذانهم وأعينهم وبقية حواسهم فى الرمال ، وعدم الاعتراف بهذه الحضارة التى يعتبر من أكبر خصائصها قدرتها على الدخول إلى كل بيت ••• والنفاذ من كل هواء ••• وللأسف فلا تزال بقية من هؤلاء موجودة حتى الآن !!

وعلى النقيض منهم هناك آخرون راحوا يأخذون الموقف

المقابل فيهبطون إلى قاع الحضارة الأوربية مغلقين آذانهم وأعينهم – بطريقة مختلفة – عن كل دعوة للنقد أو التمحيص ••• لقد قبلوا الحضارة الحديثة بالجملة كما رفضها الآخرون بالجملة •

وهؤلاء وأولئك مخالفون لشروط الاحتكاك الحضارى ، وهم غير واعين بأبجديات الصراع التى يقتضى اللقاء بين حضارتين الالتزام بها ، إذ أن الرفض الكامل والقبول الكامل إنما هما معاً (غيبة) للعقل وعجز عن (الاستجابة للتحدى) وعن (الحوار الحضارى) ، وكلاهما مغفل لعنصر (الحداثة) التى تعطيها الحضارة الأحدث ولعنصر (التجربة) التى تعطيها الحضارة الأقدم •

– وإذا كان التاريخ فى مسيرته الحضارية يترك على جانبى المعارك والصراعات والإيجابيات والسلبيات بعض القيم والمعطيات التى يجب أن تستقر فى وعى المجموع البشرى ، وترقى إلى مستوى (الثوابت) – فإن الرفض الكامل أو القبول الكامل يضيع على البشرية هذه الحصيلة التى تدفع البشرية ثمنها غالياً ••• ولا يجوز أن تهدر بحال من الأحوال !!

وبالتالى فإن هذين الطرفين اللذين واجها الحضارة الحديثة لم يمثلا الرد الحضارى الموضوعى ••• ولقد كان (حتما) – ما دام الصراع بين حضارتين متكافئتين – أن

يتداعى هذان الطرفان (الإسلاميان) وأن يظهر طرف جديد يحاول أن يقـوم بواجب الحوار الحضـارى مع الحضـارة الحديثة ... وإن صمود الإسلام حتى اليوم ، ومع هيمنـة الحضارة الأوربية منذ أربعة قرون لهو أقوى دليل على أن الحضارة الإسلامية حضارة قوية البناء ، وأنها — على الرغم من إخفـاق أكثر أبنائها فى مواجهـة الحضـارة الأوربيـة القوية — لازالت قادرة على الحوار ، بل إنها بدأت تأخذ — مع هذا الوضع المتردى — زمام التأثير والمبادرة الفكرية والقدرة على الإقناع ...

* * *

إننا لا نحاول فى هذه التوطئة أن نستوعب فصول قصة اللقاء بين الفكر الإسلامى والحضـارة الحديثة منذ ظهـرت أوربا على مسرح التاريخ ، تحاول اكتساح الحضارات البشرية وتسعى إلى فرض صياغتها للحياة وفلسفتها نحو الغيب والكون ورؤيتها الفنية والجمـالية بل ولغاتها وآدابهـا على البشرية كلها .

وإنما نحاول — فقط — أن نمهـد الطريق لموضـوعنا الأساسى وهو : (موقف الفكر الإسلامى المعاصر من الحضارة الحديثة) محددين إطار هذا الموضوع بنطاق العنـاصر التى تمليها طبيعة الموضوع ، وهى :

١ — الفكر الإسلامى — فهو الطرف الأسـاسى الذى

يراد التعرف على (موقفه) .. وهذا الفكر الإسلامى مكون — كما نرى — من مصطلحين : (الفكـر) — أى محصـول الاجتهـاد البشرى الاحتمـالى وليـس الوحـى اليقينى — (والإسلامى) أى الذى تتكامل له الأساسيات التى توثق نسبه الإسلامى ... وبالتالى فهو ليس فكر المستشرقين ، حتى وإن اتصل بالإسلام ، وهو ليس فكـر الخارجين عن الإسـلام (المرتدين) حتى ولو تشبثوا بمصطلح الإسلام وأطلقوه على أنفسهم فالانتماء العقـدى لابد وأن يتحـرك فى الدائـرة الأساسية المعتمدة .

٢ — (المعاصر) ... والمعاصرة (وهى العنصر الثانى) تحدد النطاق الزمنى للموضوع فى القرن الرابع عشر الهجرى (وما يوازيه فى التاريخ الميلادى تقريبا) ، وهو تحديد يعفينا من النظر فى مسـيرة القرون الثلاثة التى سبقت ذلك ، وهى قرون الالتحام المبكر الذى بدأ منذ القـرن السـادس عشر الميلادى .

٣ — الحضارة الحديثـة (وهى العنصر الثالث) ... ويقصد بها الحضارة الغربية بجنـاحيها الغربى الرأسـمالى (الأوربى الأمريكى) والشرقى الشـيوعى (كتلة الاتحـاد السوفيتى والصين ومن يدور فى فلكهم) ...

وفى هذا النطاق نعالج الموضوع محاولين أن نوجز كل الإيجاز ، لأن التفاصيل ستبعدنا عن نطاق معرفة (الموقف)

وتجرنا إلى نطاق (التاريخ المجرد) وهو مالا يتناغم مع قضية هذا البحث .

مناطق الاشتباك :

إذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامى إبان القرن الرابع عشر الهجرى ، فإننا سنجد معظم هذا العالم قد سقط أمام ضربات الحضارة الغربية من النواحى السياسية والعسكرية على الأقل . فقد ضم الجزء الأكبر من شمال إفريقيا إلى فرنسا وسوريا ولبنان ، وراحت إيطاليا تنظر بعين الطمع إلى ليبيا ، وتمهد لنفسها فيها بكل الطرق ، وسيطرت بريطانيا على أكثر البلاد الإسلامية ، وعلى رأسها مصر والسودان والهند الكبرى (باكستان وبنغلادش) والعراق وإيران وفلسطين وشرق الأردن ، وخضعت أندونيسيا لهولندا ، وأخضعت روسيا ما وراء القوقاز والخانيات الأوزبكية العظيمة (بخارى وسمرقند وخيوة وخواقند) بالإضافة إلى منغوليا وأذربيجان وكا شكند والتركستان ، فكأن خريطة العالم الإسلامى — كما نرى — قد أصبحت تحت قبضة الحضارة الحديثة ، ولم يفلت منها إلا جزيرة العرب — بدرجة ما — وإلا المغرب الأقصى وما وراءه — بدرجة قلقة أيضاً ... فضلا عن تركيا التى كانت نفسها تترنح آيلة للسقوط .

هذا من الناحية السياسية والعسكرية ... أما من الناحية العقدية والفكرية فنستطيع القول أن أوربا كانت

تحاول الامتداد إلى بلدان العالم الإسلامى .... فبعثات التنصير كانت تسبق الجيوش ممهدة أو تلحق بها موطدة . وكانت أساليب التغريب والعلمنة التى يحملها الأوربيون معهم إلى كل مكان وصلوا إليه تمتد إلى مناهج التعليم وأساليب التثقيف وإلى الاقتصاد والحياة الاجتماعية والثقافية .

ومن الغريب أن العالم الإسلامى أمام الهجمة لم يكن يملك أدنى أدوات المقاومة ، اللهم إلا القوة الكامنة فى دينه وإلا الماضى العظيم المنساب فى كيانه والذى يمنحه وقود الاستعلاء على الأزمة الخانقة المحيطة به ، وإن لم يكن يحسن الإفادة منه أو تمثله فى حاضره الأسيف .

لقد كانت حالة هذا العالم أسوأ حالة ، يصورها لنا الكاتب الأمريكى المعروف (ستودارد) فيقول : (كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركه ، فاربدجوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه ، انتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الإسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واعتيال .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست

الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين ، يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات) (١) .

وهكذا لم يكن لدى العالم الإسلامى أسلحة سياسية ولا عسكرية ولا فكرية ولا عقدية ... وكان عليه إما أن يستسلم فيسقط فى حضيض الهزيمة الحضارية المدمرة ، وإما أن تظهر فيه أقلية مبدعة وصفوة مجاهدة تستعين بالإسلام فى صد هذه الغارة التى امتدت إلى ساحة العالم الإسلامى كله ، وعليها أن تكشف عن جوهر الحضارة الإسلامية الصحيح أمام التحديات الكبيرة .

المنهجان المرفوضان وتأثيرهما

ذكرنا أننا نرفض المنهجين اللذين وقفا من الحضارة الأوربية موقفاً مبدئياً صارماً فرفضوها بالجملة وطعنوا فى كل ما قدمته .. أو قبلوها بالجملة وزينوا كل سلبياتها ودافعوا عنها ... وحولوا مباذلها القاتلة محاسن فاضلة .

والمنهجان معاً أضرا بالأمة الإسلامية غاية الضرر ، فقد كان منهج الرفض الكامل للحضارة الأوربية المسئول الأكبر

(١) حاضر العالم الإسلامى جـ ١ ص ٢٥٩ (لوثروب ستوردارد) .

عن تخلف المؤسسات الإسلامية التعليمية منها والاقتصادية والإعلامية ، بل وكان سببا فى سقوط الخلافة العثمانية ، وجمود كثير من مرافق الحياة الإسلامية على امتداد العالم الإسلامى كله ، وليس ما عرف فى تركيا أو مصر أو الجزيرة العربية إلا نماذج لهذا الموقف الذى وجد له متعصبون فى معظم البلاد الإسلامية ... ولقد كانت تركيا هى أكثر الدول الإسلامية مواجهة للخطر الأوربى ، وكان عليها أن تغير نفسها مواجهة للخطر الزاحف عليها ، واستيعابا لنقاط قوة الخصم وللمستحدثات الحضارية الضرورية للمقاومة (ولكن زعماء الأتراك الدينيين الذين كانوا صفرا من روح التفقه والاجتهاد للتعاليم الإسلامية الحقيقية أغمضوا عيونهم عن كل ذلك التغيير والانقلاب ، وأكرهوا الأمة التركية على أن لا تخرج — ولو خطوة — من حدود البيئة التى سادتهم منذ سبعمائة عام وتبع السلطان سليم السلطان محمود فى الحكم ، فحاول الإصلاح ، ولكن العلماء والمشايخ خالفوه مرة أخرى وبتذليل كثير من العوائق والصعوبات تمكن السلطان فى سنة ١٨٢٦ م من ترويج التنظيم العسكرى الجديد فى تركيا . ولكن العلماء لم يزالوا ينادون بأن كل تلك الاصلاحات بدعة سيئة يراد بها تخريب الإسلام ، وأن السلطان قد مرق من الدين وأن التطوع فى الجندية من هذا الطراز الحديث مفسدة لإيمان المسلمين .

وكان هذا هو الزمان الذى أحس فيه أهل الفكر من الأتراك بتخلفهم وهوانهم القومى) (١) .

---

(١) نحن والحضارة الغربية لأبى الأعلى المودودى ص ١١٢ طبع بيروت .

لقد كان من جمود علماء الأتراك (حتى فى القرن العشرين الميلادى) وضيق تفكيرهم ونزوعهم إلى القـديم وإبائهـم الأكيد لمسايرة الزمن ما عهد فيهم أيـام السلطان سـليم ، فكانوا يقولون حتى الآن إن باب الاجتهاد قد انغلق بعد القرن الرابع ، والحال أن باب الإلحاد الصريح كـاد ينفتح أمـام أعينهم ، وكانوا لا يزالون يدرسون ويدرسون فى الفلسـفة والكلام تلك الكتب التى كان الزمان قد خلفها من ورائه منـذ خمسمائة سنة وتقدم إلى الأمام ،وكانوا يلقون على الناس مواعظهم ، من ذلك التفسير القرآنى وتلك الأحاديث الضعيفة التى لا شك أن الناس كانوا يستمعون إليها بشوق قبـل مائة سنة ، ولكنها جاءت تنفر فى هذا الزمان العقول الجديدة لامن أولئك المفسرين والمحدثين فحسب بل من القـرآن الكـريم والحديث النبوى نفسه ، ثم إنهم كانوا مصرين على أن تنفذ بين الأمة التركية تلك القوانين الفقهية التى هى مكتـوبة فى مجموعات الشامى وكنز الدقائق ، وإن كانت نتيجة هذا الإصرار أن يتملص الأتراك حتى من اتباع القوانين الأصولية المنصوص عليها فى القرآن والسنة (1) !) .

وهكذا كان تأثير المنهج الأول (الرافض) مدمراً ، ولعله فى تصورى — وكما أوضح العلامة أبو الأعلى المودودى — المسئول الأول عن سقوط الخلافة العثمانية ، إذ هو السبب الداخلى الذى يسبق فى المنظور الحضارى العوامل الخارجية .

(1) نحن والحضارة لأبى الآعلى المودودى ص ١١٧ .

ـ أما أصحاب المنهج الثـانى ، فهم هؤلاء الذين لـم تتوافر فيهم أية حصانة ذاتية أو أصالة إسلامية ، بل كانوا أشبه بالمراهقين الذين تخدعهم الظواهر ولا يحاولون التعرف على سنن الله الكونية فى رقى الأمم ، ولا التعرف على الأسـاليب الصحيحة التى تواجه بها التحديات الحضارية ...

ولقد بلغ من سخافة عقول بعضهم أن دعوا الأمة صراحة إلى التبعية الفكرية والروحية الكاملة للحضارة الحديثة ...

ولقد صور أستاذنا الفاضل الشيخ محمد الغزالى هـذا الوضع (١) حين نقل إلينا ماكتبه أحد هؤلاء ويدعى (ماجـد فخرى) ... يقول الشيخ الغزالى :

« لقد كتب السيد ماجد فخرى منددا بالشيخين محمد عبده ورشيد رضا ، ومفندا رأيهما فى صلاحية النظام الإسلامى لعالمنا الحاضر آخذا على الإسلام كثيرا من نظمه الاجتماعية والاقتصادية ... وليس هذا يعنينا بقدر ما يعنينا ماذا يريد الكاتب بعد تحطيمه للإسلام ؟! إنه يقول بالحـرف الواحـد (والكلام هنا لماجد فخرى) :

إنه يخيل إلينا ـ نحن الشرقيين ـ أن الاستقلال عن الغرب سياسياً يعنى الاستقلال عنه فكريا وحضاريا وهذا ـ أيها السادة ـ وهم فاضح فالدول الشيوعية نفسـها كروسيا

---

(٢) انظر الحافل بتحليل هذا المنهج التغريبى (ظلام من الغرب) .

والصين ودول شرق أوربا مازالت كلها عالة على الغـــرب فى ميدان العلم والفلسفة • ألم يكن حلم بانى روسيا الحديثـــة بطرس الأكبر نفسه « تغريب » روسيا فى القـــرن الســـابع عشر » •

ولم تكن آثار هذا المنهج بأقل سوءاً من المنهج الأول ، فإذا كان الأول قد سد الطريق أمـــام (الإيجابيات) التى يمكن أخذها من الحضارة الحديثـــة ، فإن الثـــانى قد جلب إلينـــا (السلبيات) فكأن المنهجين تعاونا على إصابتنا بعمى ألـــوان و (بالخلط) فى علاقتنا بالحضارة الحديثة ، فاتجه بعضـــنا إلى رفض الصالح ، وذهب آخرون إلى جلب الفاســـد ••• وهذا منهج حضارى غريب سىء العاقبـــة ، قضى على كثير من الشعوب فى التاريخ ، ولولا الأصالة الذاتية للإســـلام ، وموقف المفكرين الواعين لكان نصيب العالم الإســـلامى كله المسخ والتشويه الدائمين •

مرحلة الثقة والنضج : ــ

مع وضوح الأثر العميق السىء للمنهجين الســـابقين ، ومع تجاوز فترة (المفاجأة) التى ارتبك فا لتعامل معها كثير من المسلمين الذين سقطوا فى التبعية الفكرية للحضارة الأوروبية غربيها الرأسمالى أو شرقيها الشـــيوعى ، والذين انبهـــروا بمنجزاتها العلمية ، دون أن يدركوا أن (المنجزات العلمية) ليست إلا نتجية ، وأن الحضارة بناء فكرى داخـــلى ومنهـــج

للتعامل مع الحياة والكون والإنسان وخالق الكـون ، ودون أن يدركوا أن الآلات والمنجزات العلميـة قسـيم مشـترك بين الناس يحتاج لشروط موضوعية خاصة ، والأهم فى الحضارة — لاستمرارها وازدهارها — ليس هذا الجانب الآلى المشترك والذي يمكن أن ينبغ فيه الرأسـمالى والشـيوعى والوثنى الهندوكى واليابانى والمسلم على السـواء •• وإنما الأهـم (الأسس الفكرية والأخلاقية) التى تقوم عليها الحضـارة •

••• أقول •• مع تجاوز فترة (المفاجأة) هذه ، وبداية اعتدال الميزان ووضوح البصيرة ، بدأت تظهر مرحلة جديدة يمكن تسميتها بمرحلة الثقة والنضج ••• وهذه المرحلة قـد واجهت الحضارة الحديثـة بموقفين جيدين يكمـل أحـدهما الآخر •••

فأما أولهما ، فهو تجاوز مرحلة (الدفاع) إلى مرحلة (نقد الحضارة الحديثة) فى أصولها الفكرية والأخلاقيـة ، ليس بقصد التبغيض فيها لرفضـها ، ولكن لبعث الثقـة فى الإنسان المسلم وحضارته من جهة ، ولتوعيته حضارياً — من جهة أخرى — ليدرك الفرق بين مصطلحين هامين مختلفين كل الاختلاف وهما مصطلح (التغريب) و (التحديث) فلا علاقة بينهما البتة ، فالأول يعنى أن غايتنا هى أن نكـون أشـباه الغربيين حتى فى سلبياتهم ، والثانى يعنى أن (التحديث) — أى امتلاك أحدث وسائل العصر — هو الهـدف سـواء جاء التحديث من أوربا أم من اليابان ••• والأول ذوبان وتبعية ،

والثانى معاناة وصراع حضارى بين الخصم مع الحفاظ على الذات ••• وإلا فلو ذابت (الذات) فلا صراع ، لأن (المقلد) يمشى على خطى (المقلد) ولا يصارعه •!!

وأما ثانيهما :

فهو موقف (البناء الذاتى) لحضارة (إسلامية حديثة) تستخدم كل معطيات العصر ووسائله وفنياته وكل ما يبيحه الشرع ، وتحافظ فى الوقت نفسه على كل الأصول والقواعد الإسلامية مفرقة بوضوح بين ما هو حرام ••• وما هو حلال متمسكة بدينها بوعى وإصرار وإخلاص ، مؤمنة بصلاحيته الكاملة لقيادة السفينة البشرية الموشكة على الغرق ، سواء فى : (العقيدة الصحيحة) أو فى (الاقتصاد) ، أو فى (السياسة) أو فى (الإعلام) أو فى (الفن والأدب) أو فى علوم النفس والاجتماع والتربية •••

وفى كل ذلك بدأت تظهر منهجها الإسلامى ، وتبنى المؤسسات ، وتتقدم إلى كل ناحية من نواحى المعرفة ، فتؤصل الاقتصاد ــ بمئات الدراسات ــ وفق المنهج الإسلامى ، بل وتبنى ــ ولله الحمد ــ مؤسسات اقتصادية إسلامية وتؤصل (الأدب) (بالإسلام) وتقيم مؤتمرات للأدب الإسلامى ، وتنشىء أقساماً للإعلام الإسلامى ، وتستحدث البدائل الإسلامية فى الفنون المختلفة ، وتفتح باب الاجتهاد الذى أغلقته بعض العقول الجامدة (وإلا فهو مفتوح ولم يغلق)

وتقدم نظــريات فى التربية ، وتنشىء المــدارس ، وتنشىء صحفاً إسلامية راقية عصرية إلى آخره •

ومهما تكن هناك من أخطــاء ، فإن مواصــلة التطبيق كفيلة بإذن الله بعلاج الأخطاء ••• فالاختلاف بين الفكــر والتطبيق مقبول فى حدود معقولة ، ومع المثــابرة والإصرار على محاولة الوصول إلى الأهداف الواضحة المحددة •

وفى الصفحات التــالية نلقى بعض الضــوء على هاتين المرحلتين المثلتين لمرحلة (الثقة والنضج) ثم نخلص منهما ـــ بإذن الله ـــ إلى تقديم تصورنا لما نراه كفيلا بإقامة حضارة إسلامية معاصرة •

نقد الحضارة الحديثة :

كان لابد من إقامة هذا الجدار الواقى بيننا وبين الجيران •• فمــا داموا مصرين على فرض الذوبان والتبعية علينــا ، رافضين لكل حق وخير عندنا ، مشوهين لكل أفكارنا وقيمنا ، بين أبنائهم وأبنائنا ـــ مادام الأمر كذلك ـــ ولا سبيل للالتقاء ـــ فلا سبيل إلى ترك الحدود مكشوفة ، ولا إلى التغاضى عن روائحهم الكريهة ، وأطماعهم ، ونزواتهم القاتلة ••••

لقد حاولنا أن نعرفهم بأنفسنا فرفضونا ، وتقولوا على مقدساتنا الواضحة وافتروا عليها ، ولم يتركوا وسيلة لإبعادنا عن ديننا وحضارتنا إلا اتبعوها ، وعاملونا بكل عنف وصلف ،

ولم يسمحوا لأنفسهم — حتى وهم يستعمروننا ويتحكمون فينا ويعيشون بيننا — بأية موضوعية أو إنسانية ولا يزالون — حتى اللحظة — سائرين بإصرار على هذا الطريق ●

لقد كانت فرصة احتلالهم لنا فى القرنين الأخيرين — على الأقل — موجبة لهذا التعرف على حضارتنا على نحو ما فعل التتار قبلهم ، فكان الواجب الأخلاقى يملى عليهم « أن يقيموا المراكز العلمية والفكرية لدراسة القرآن الكريم والسيرة النبوية — على صاحبها الصلاة والسلام — دراسة مجردة مخلصة ، وأن يوفروا وسائل الدراسة العلمية لهما بأريحية وسخاء ويشجعوا الدراسة الموضوعية التى تتحرر من رواسب الحروب الصليبية الملموسة وغير الملموسة ، والأهداف والمصالح السياسية والادعائية ، وتتحرر من مركب لاستعلاء (Superiority Complex) الذى يكون فى غالب الأحيان نتيجة السيطرة السياسية والحكومة القومية ، والذى يحول بين الدارسين وبين التأملات الحيادية والدراسات المنصفة لثروة الشعوب وللبلدان المغزوة العلمية ومعتقداتها ومسلماتها والتقدير الصحيح لقيمتها وأهميتها » (١) ●●

— لكن الواقع أنه لم يكن فى هذه المدة بيننا وبينهم إلا اتجاه واحد (One Way Traffic) وهو اتجاه الإخضاع والغرور والتشويه والرفض الذى تحدثنا عنه سابقاً ●

---

(١) العلامة أبو الحسن الندوى : الإسلام والغرب ص ١٨ طبع ندوة العلماء لكنؤ الهند .

ومن هنا فلم يكن أمامنا من خيار إلا أن نحمى أنفسنا ، وأن نتدثر بشخصيتنا وحضارتنا ، وأن نكشف لخصومنا الحضاريين نواحى الخلل عندهم ، ليس من أجلهم فقط ، بل من أجل أبنائنا المهددين بضغوطهم .

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال فى قصيدته (رسالة إلى الغرب) : « اعلموا أيها السادة أن من ثار على شخصيته وكرامته وفقد الثقة بنفسه مات ومحى من الوجود ومن فر من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان والشقاء ، والطرد والجلاء ، ألا إنه لم يجن عدو على عدو مثل ماجنيتم أنتم على أنفسكم ولم يسىء أحد إلى أحد إساءتكم إلى أمتكم ، إنكم آذيتم روح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصنيعكم فهى متألمة متوجعة شاكية مستغيثة » .

« الشاعر (يقصد نفسه) عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ، وحبائل منصوبة ، والشاعر شديد المعرفة بهم ، قد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم،فهو يتألم إذ يرى فى الأمة العربية من يحسن الظن بهم ، ويعتمد عليهم فى بناء صرح الحياة ، وفض المشكلات ، فيرسل صيحته وينذرهم من المصير المظلم المؤلم » ..

« مهلا أيها الغافلون !! إياكم والركون إلى الإفرنج والاعتماد عليهم،ادفعوا رؤسكم،وانظروا إلى الفتن الكامنة فى

مطاوى ثيابهم • ألا إنه لا حيلة لكم ولا ملجأ إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم •» ••

ـ وفى مكان آخر خـلال مقطـع من ديوانه العظيم (رسالة الخلود) يخاطب الشاعر إقبال (الحضارة الأوربية) فيكشف سوأتها (وهو الخبير بها) ويطلع أصحاب البصـيرة والبصر على حقيقتها ويحذرهم منها ••• يقول : أيتها الحسناء الماكرة ، أيتها السارقة (يامن تعرفين القمح ثم تبيعنه شعيراً بسبك يبيع الشـيخ والبرهمى وطنـه) • (العقـل والدين ذليلان من مظاهر كفرك ، والحب العف ذليل من أوجه دعارتك)، لقد أصبحت العلامتان المميزتان للبشرية وهما العقل والدين ذليلتين منكسرتين بفعل أعمالك الشيطانية ، لقد جعلت الإنسان بمنأى عنا لنفحات الطاهرة التى تكمن فى الحب العفيف « لقد اخترت صحبة الماء والطين ، لقد اختطفت العباد من أمام الله » ألا تدرين أنك جعلت الأنظار تنصرف عن الروح وعن الأخلاق السامية وجعلت هدف الحياة اللذة الجسمانية وحدها •) •

ـ وعلى خطى شاعرنا العظيم (إقبال) تتتابع كتابات المفكرين المسلمين الذين اهتموا بتقويم هذه الحضارة ، ونقدها موضوعياً ، سواء فى فكرها وفلسفتها التى قامت عليها أم فى نتائج أفكارها القاتلة • يقول العـلامة أبو الأعلى المودودى رحمه الله : (إن سنة الله نراها تتكرر اليوم أمامنـا ، فوبال الأعمال السيئة الذى ذاقته الأمم السـالفة قد أحاق اليوم

بالأمم الغربية ، وذلك أنه قد أنذرت هذه الأمم بكل وجه ممكن للإنذار فآفات الحرب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الأمراض الفتاكة وتبدد النظام العائلى ، كل أولئك آيات بينات ، لو تأملوها لعلموا أن كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق • ولكنهم لا يجدون فى هذه الآيات ما يعتبرون به ، فلا يزالون يميلون عن الحق ، وإذا هم تصدوا لمعالجة ما أصابهم فلا تصل أبصارهم إلى العلة الرئيسية للمرض ، وإنما هم ينظرون إلى ظواهر المرض يستفرغون جهودهم لمعالجتها ، وبهذا الخطأ البين فى العلاج لا يزال داؤهم يستفحل كلما عولج ، ومما تدل عليه الأحوال الآن أن مرحلة الإنذار وإتمام الحجة قد كادت تنتهى ، وقد اقتربت ساعة القضاء (١)) •

لقد عانى الفكر الإسلامى من ضغط الحضارة الأوربية الكثير ، فهى حضارة مغرورة لا تصغى أذنا لأى حوار ، وهى تنطلق من ثوابت لديها تجاه الحضارة الإسلامية ، ولا تحاول أن تغير من هذه الثوابت ، وهى عامدة إلى تزييف الحقائق الإسلامية ، وإلى الحديث عن المسلمين ماضياً وحاضرا بحقد صليبى موروث ، وهى تقف مع كل ملل الأرض حتى الإلحادية منها ضد المسلمين ••••

وكان لابد لكل هذا أن يترك انعكاسه على الفكر الإسلامى

(١) نحن والحضارة الغربية لأبى الأعلى المودودى ص ٧٦ ، ٧٧ .

... ومن هنا سنجد سيلا من الكتب الإسلامية يحذو حـذو القلة (الغربية) العاقلة التى تقوم بنقد الحضارة الأوربيـة من داخلها وعلى رأسها (ازوالد شـنجلر) مؤلف (أفـول الغرب) و (الكسيس كاريل) صاحب (الإنسان ذلك المجهول) و (رينيه دوبو) صاحب (إنسانية الإنسان) و (أريك فروم) صاحب (ثورة الأمل) وغيرهم ... بالإضـافة إلى (القلة النادرة) من كبار مثقفى الغرب الذين انتصروا على الحضارة الغربية فى نفوسهم وعقولهم ، فانسـلخوا انسـلاخا كاملا وأعلنوا إسلامهم من أمثال (ليوبولد فايس) الذى أصبح اسمه بعد الإسلام (محمد أسد) والذى ألف كتاباً كان من أهـم الشارات الوضيئة فى هذا الطريق بما حواه من عمق فى التعرف على (روح الغرب) وهو كتاب (الإسلام على مفترق الطريق) ومثل (المهدية مريم) صاحبة كتاب (الإسـلام بن النظـرية والتطبيق) ومثل (روجيه جارودى) وغـيرهم ... فلهؤلاء وأولئك فضل تعميق هذا المنحى فى الفكر الإسلامى ، وظهور مئات الدراسات فى هذا الطريق ، معظمها جاد موضـوعى ، وبعضها قد تشوبه شائبة العاطفة الجموح .

ولعل من أفضل الدراسات ، فى الاتجاه الأول : كتابات المفكرين الإسلاميين الكبار ، وعلى رأسـهم العلامة محمـد إقبال والشيخ عبد الحميد بن باديس ، والعلامة مالك بن بنى، والعلامة أبو الأعلى المودودى والعلامة أبو الحسن الندوى والشهيدان حسن البنا وسيد قطب وهؤلاءهم الذين تجاوزوا

مرحلة (المفاجـأة) التى تلقاها جيـل المصلحين الرواد من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد فريد وجدى وغيرهم •• فإن هذا الجيل الثانى فى الحق أكثر وعياً وقدرة ، وجمع أقطابه فى اتزان وشمول ••• بين خير ما عند (جيـل المفاجأة) وبين ما استطاعوا بكفايتهم واحتكاكهم بالحضـارة الغربية — أن يحصلوه من أعماق منهجية ونظرات ثاقبة ••• فنقدوا الحضارة الغربية بمنهجها وكشفوا عورتها وفسادها ، وعمقوا الرؤية الإسلامية الحضارية أيما تعميق •

أما الاتجاه العاطفى فى نقد الحضـارة الغربية ، فهو اتجاه أقرب إلى الرفض ، وهو لا يكـاد يرى — إلا قليلا — فى الحضارة الأوربية بعض الإيجابيات ، وعلى كل حال ، على الرغم من مأخذنا هذا عليه فهو قد قام بدور فى تعميق هـذه المرحلة ، وساعد فى إقامة هذا الجدار القوى الذى كان يجب أن يقوم •• ولو على الرغم منا — بيننا وبين هذه الحضارة التى تريد أن تجهز علينـا وعلى ديننـا ، وتقضى على كـل خصائصنا ومقوماتنا •

— وحسبنا أن نقتبس هذا النص التالى للدلالـة على هذا الاتجاه •••

— يقول مؤلفو كتاب (الإسلام وحضارة المستقبل) (١) :

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجى ، السيدة (أمينة الصاوى) ، د. عبد العزيز شرف نشر مكتبة مصر ص ٦ .

« حضارة أوربا نسيج من القوة والطغيان والأثرة وحب الذات والأنانية ، وقد قامت على أساس فلسفتها الاستعمارية والتفرقة العنصرية ... إنها حضارة اللذة والمتعة وعبادة المرأة والمال ... وعلمها الذى تسير تحته أن الجنس الأوربى هو سيد العالم ومن عداه عبيد أو كالعبيد . وإذا كانت أوربا قد حررت الرقيق كلاما ، فإنه مازال موجودا فعلا . الرقيق موجود فى المرأة التى تبيح شعائر أوربا شراءها بالمال ، وموجود فى البلاد المستعمرة التى تعيش فى منزلة أحط من منزلة العبيد فى سالف الأزمان وكل خيرات هذه الشعوب هى لأوربا ، ولشعوب البلاد المستعمرة الفقر والمرض والجهل والقتل والموت البطىء الذى لا يتصور أقسى منه » .

« — إن حضارة أوربا حضارة الربا والقمار والمكيافيليه الشريرة ، والإباحية والعلمانية والمادية ، واستعباد المرأة باسم تحريرها . حضارة لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة .

ومع ما بلغته أوربا من قوة مادية فإنها قد انهارت روحيا وخلقيا وإنسانيا إلى الدرك الأسفل ، وحسبك أنها تحرم على الرجل أن يتزوج إلا بواحدة ، ومع ذلك تبيح له أن يعيش مع ألف عشيقة وبائعة لجسدها ، ولا تعد ذلك منكرا دائما ، إنما الإثم فى نظرها القاصر هو ما شرعه الإسلام للرجل من حرية الزواج بأربع بشرط أن يعدل بينهن : (وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) .

وأوربا فى ظـــلال حضــارتها الماجنــة تعيش فى انهيار دائم ، ورعب طويل ، وفزع مستمر [1] •• » ••

وثمة مقالات وكتب كثيرة داخلة فى نطاق الفكر الإسلامى نقدت الحضارة الغربية بهذا المنهج ••• وهو موقف فكــرى مهما يمكن أن يؤخذ عليه ــ قد قام بنصيبه ــ كما ألمعنا ــ فى درء خطر الذوبان والغرق فى بحر الحضارة الغربية المتلاطم الأمواج •

موقف البناء الذاتى ورفض التلفيق : ــ

من خلال التجارب الحضــارية المتعددة يعلمنا التاريخ أن أخطر ما تواجهه أمة هو أن تنهزم فى فكرها ومنهج حياتها أمام خصومها الحضاريين •

وعشرات من الأمم هزمت سياسيا وعسكريا ثم نهضت من جديد ، ولربما أثرت بعضها فكريا وحضارياً فى المنتصرين عليها فى ميادين السياسة والحرب والاقتصاد ••

فالهزيمــة الحقــة هى تلك التى يستسلم فيها العقــل وينسحق الوجدان ، وتتجه المشاعر ــ فى خضوع ذليــل ــ إلى منهج الأعداء العقدى والفكرى والسلوكى •

---

(1) المكــان الســابق .

والتقليد ... فى مجال الصراع الفكرى والحضارى له حدود لا يجوز أن يتجاوزها ... إنه يشبه جرثومة مقاومة الطاعون التى لابد أن تعطى بنسبة مئوية محددة ، وبشروط معينة ، وإلا تحول الدواء إلى داء قاتل ...

وفى مرحلة من المراحل — خلال فترتنا المعاصرة من القرن الرابع عشر الهجرى — بدا وكأن ميزان التعامل بين الفكر الإسلامى والحضارة الحديثة يميل إلى الاختلال يميناً ويساراً ... فكم من المفكرين اختل جهاز القيادة الفكرية فى أيديهم ..

* فاتجه بعضهم إلى محاولة تلفيقية يسارية ، ونادوا بأهمية أن يكون هناك (يسار إسلامى) ، ووضعوا لتيارهم هذا خصائص أسقطوها عليه إسقاطاً ... وابتسروها من الحقائق الإسلامية المتكاملة .

* واتجه بعضهم إلى (الليبرالية) — متجاوزين عن كثير من الفروق بين (الديمقراطية) — كفلسفة غربية ذات جذور وخصائص مستقلة — وبين (الشورى) الإسلامية ، فأغفلوا الثانية ، وركزوا على الأولى ، وتحدثوا عنها وكأنها الطريق الوحيد أمام المسلمين .

— والحق أن الاتجاه إلى إسقاط فلسفات معاصرة

(مسيطرة) على الفكر الإسلامى ومنهج الإسلام ، سـواء كانت يسارية اشتراكية ، أم يمينية ديمقراطية رأسمالية ... هذا الاتجاه كله اتجاه (تلفيقى) ومن شـأنه بعثرة خطوات المسلمين ، وتمزيق رؤاهم ، وإبعادهم عن منهجهم الحضارى الصحيح .

والجدير بالذكر أننا لن نجد قيمة من القيم الإيجابيـة فى كلا الاتجاهين إلا وهى موجودة ضمن حلقـات النظـام الإسلامى ... لكن بدرجة محددة وفى سياق معين وضـمن منظومة كاملة من التشريعات والأخـلاقيات ... فالتكـافل الاجتماعى والاقتصادى وإنصاف الكادحين ومؤازرتهم جـزء لا يتجزأ من الإسلام ، وتحقيق الحرية الإنسانية والمسـاواة أمام الشريعة بين كل الناس وهيمنة القوانين على كل الناس ، وتحقيق العدل ... هذه أيضاً قيم إسلامية أساسية فى النظام الإسـلامى ... فما معنى (بتر) بعض القيم و (التركيز) عليها على حساب قيم أخرى ؟ وما معنى إبراز هـذه القيم (المنتقاة) وكأنها قيم غير إسلامية ، أو على الأقل وكأنها قيم لم تتألق إلا عندما خرجت من تحت معطف اليمين أو اليسار ؟!!

ـ وعلى أية حال ... فإن هذا التيـار المائل يمينا أو يساراً لم يستطع أن يصمد طويلا أمـام التيار المتعامل مـع الحضارة الحديثة من منطلق موقف حضـارى راسخ الجذور قوى البناء ، قادر على الأخذ بنسب حضارية متوازية محددة على النحو الذى تعرضه سنن الله الكونيـة فى التفـاعل بين الحضارات .

إن التيار الذى سيطر — ولله الحمد — هو هذا التيار الوثيق الصلة بالتكييف القرآنى للحضارة ، وهو تكييف يرفض — ضمنا — الصياغة الحديثة للحضارة ، تلك التى تتنكر لله ولا تؤمن إلا بالمادة والمحسوس •

وعلى الرغم من أنه لا يمكن القفز الأعمى من فوق المنجزات العلمية الحديثة ، فهى وسائل ضرورية لابد من استيعابها وصولا إلى حتمية (التحديث) فإن هذا التحديث لا علاقة له (بالتغريب) فليس (التغريب) هو الطريق الوحيد للتحديث ••• بل التحديث الإسلامى الذاتى المطلوب — فى ظل المنهج الفكرى الرشيد — هو الذى يأخذ بكل المعطيات الإيجابية فى الحضارة الحديثة ، ولا يضحى — فى الوقت نفسه — بالمنهج القرآنى فى صياغة الحضارة ، ذلك المنهج الذى لايتم إلا إذا تمكن المسلم من أن يقرأ القرآن كأنما أنزل عليه ، وإلا إذا أخضع المسلم نفسه للقرآن ، ولم يسقط على الصياغة القرآنية من واقعه المريض أو أفكاره الملفقة •

إن هذا المنهج القرآنى فى التفاعل مع الحضارة الحديثة يدفع (أولا) إلى بعث الرغبة الكامنة ، والكافية لدى المسلمين فى السعى إلى استعادة حضارة الإسلام ، ويدفع (ثانياً) إلى القضاء على التجزؤ وأسبابه ، ذلك لأن الجهد الحضارى إنما هو جهد جماعى لا يثمر إلا إذا كان كذلك ، ومحال أن يتحقق العمل الجماعى إلا بعد انصهار الجماعة فى وحدة

حقيقية مترابطة ، يقيها من التشاكس الذى من شأنه أن يقضى على العمل ذاته (١) •

ولئن كانت عـوامل التجزؤ عـديدة ورهيبة ••• فإن هذه العوامل لا تتسلل إلى الأمة إلا حيث تعانى من فـراغ فكرى ، وفقر إلى مجموعة المبادىء والقيم التى تغنيها بدراية سليمة مطمئنه عن حقيقة كل من الكون والإنسان والحيـاة • إذ أن من شأن أى جماعة تعانى من مثل هذا الفـراغ ، أن تغدو هدفاً لمطـامع أولى الدعـوات الهدامة ، التى تصطنع المبادىء والقيم ، لبلوغ أمانيها وأغراضها •

ولكن إذا أمكن أن يسد هذا الفراغ فى حياتها الفكرية ، بقاعدة راسخة من المبادىء والمعتقدات التى تشـكل قاسـماً مشتركاً يؤمن به ويخضع له الجميع ، فإن هذه القاعدة تصبح فى حياتها كالميزان الذى يحتكم إليه الطرفان ، كلما اختلفـا على أمر ، فلا تدع شيئا من الخلافات وأسبابها تصدع بنيان الأمة أو تزهق وحدتها (٢) •

والعطاء (الثالث) فى مجال التعامل مع الحضارة الحديثة الذى يحققه المنهج القرآنى هو « تحقيق الاستقرار النفسى

(١) انظر بتصرف د. محمد سعيد رمضان البوطى : منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن ١٨٤ دار الفكر .
(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

والفكرى » ويتحقق قسط كبير من هذا الاستقرار عن طريق ترسيخ المسلمات القرآنية الأساسية ، كما يتحقق قدر كبير منه ، فى ظل الوحدة التى من شأنها أن تأتى ثمرة لرسوخ تلك المسلمات — من (جانب ثان) .. كما أن رسوخ المسلمات يحول دون الوقوع فى عمى الانبهار الحضارى القاتل ..

— « لقد نهضت الدول الأوربية نهضتها ، ودخلت عصر « البخار » الذى يشبه فى يومنا هذا عصر « الفضاء » وركبت من حياتها متن الدراية والصناعة ولكننا بدل الأخذ بأسباب النهوض الحقيقى انبهرت أبصارنا وعشيت لمرأى هذه النهضة ، وكأن من أهم أسباب ذلك الانبهار ، انحسار أسباب القوة عن حياتنا ، واشغالنا بحال (الرجل المريض) دفاعا عنه أو تعجلا به ... ثم انتثار عقد وحدتنا بين أيدى المقتسمين والناهبين .

وكان من آثار هذا الانبهار ، ذلك السعى التقليدى الأعمى وراء أوربا أملا فى بلوغ نهضة كنهضتها ، وتلمس الإصلاح فى السبل ذاتها التى تلمسته منها أوربا ... وأخذنا نضع الإسلام فى الميزان ذاته الذى وضعت فيه أوربا دينها ... كل ذلك بدافع من مركب النقض الذى حاق بنا ، والانبهار الذى عشيت له أبصارنا (١) » .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ــ وفى اتزان فكرى واع يواجه المصلح العلامة (محمد البشير الإبراهيمى) ــ الرجل الثانى فى جمعية العلماء المسلمين الجزائرية ــ الحضارة المعاصرة ، فيعلى من شأن الحضارة الإسلامية عليها ديناً ولغة وشريعة ، ويدعو إلى الحضارة الشرقية التى يسميها « بداوة » (ــ دون مواربة لفظية ــ) ... يقول المجاهد الجزائرى الكبير : « لقد جاء الإسلام بالحضارة التى لا تبيد ، والمدنية المبنية على حكم الله وآداب النبوة ، فكان التوحيد أساسها ، والفضائل أركانها والتشريع الإلهى العادل سياجها ، واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها . وبذلك كله أصبحت مهيمنة على المدنيات كلها ، ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة على القواعد الثابتة مما ذكرناه (١) » .

« ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت فى تكوينها وفى تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول ، ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعرض اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات » (٢) .

وأخيرا ... يقول الشيخ الإبراهيمى :

إنى لأتمثل شبابنا باراً (بالبداوة) التى أخرجت من أجداده أبطالا ، مزوراً عن الحضارة التى رمته بقشورها

(١) آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمى ج ١ ، ص ٢٥٩ طبع الجزائر .
(٢) المكان السابق .

فأرخت أعصابه وأنثت شمائله ، وخنثت طبـاعه ، وقيـدته بخيوط الوهم ، ومجت فى نبعه الطاهر السموم ، وأذهبت منه ما يذهب القفص من الأسد من بأس وصوله (١) !!

إن وصول الفكر الإسلامى إلى مخاط الثقة الذاتية كان ضرورة حتمية ، بالنسبة لأشـواط الصراع الحضـارى التى قطعها فى رحلته مع الحضارة المعاصرة ...

إن هذه الحضارة لم تقدم لعالمه الإسلامى ولا للبشرية إلا السموم الأخلاقية التى ينكرها دينه القويم .

ــ ومع كل تقدم تكنولوجى ، فقد سخرت هذه الحضارة صنوف تقدمها فى خدمة الغرائز الدنيا والأهواء الجامحة ..

ــ وعندما يفكر العقل المسـلم فى الصياغة الأخلاقيـة للحضارة الحديثة يجدها صياغة لا مكان للآخرة فى نظرتها ، ولا مكان للعفـة والشرف والوفـاء والالتزام الأدبى نحـو الإنسانية فى برامجها .

إن « إعـلامها » ووسـائلها « التربويـة » (وكتبها) و (هيكلها الاقتصادى) ، وأساليبها (السياسية) ، وبرامج « سياقها التسليحى » ... كل هذه المجالات وغيرها مقطوعة الوشائج بالقيم العليا ، لا مكان فيها لمـا وراء الدنيـا ، ولا تكتنفها الرؤى الإنسانية والأخلاقية العامة .

ــ إن « الصدق » الذى هو أساس الأخلاق الإسلامية

---

(١) عيون البصائر ٢/٥٨٦ .

والذى يعتبر تجاوزه كبيرة من الكبائر إنما ينظر إليه على أنه (سذاجة) فى المجالات السياسية ، إذ « الميكيافبلية » هى الدين السياسى المتبع فى أروقة السياسة الدولية .

— وإن « الرحمة » لا تعدو أن تكون (ضعفاً) فى عرف هذا الحضارة .

— وكل شىء مباح إذا ما قامت الحرب ... فلا مكان أمام التسليح الحديث لرحمة شيخ أو طفل أو امرأة ... بل الأسلحة (الذرية) و (النووية) قد صممت لتؤدى وظيفتها بطريقة شمولية !!

وبإيجاز ، وبعيدا عن الاستطراد ، فإن المسلم يجد مبادىء قرآنه وسلوك نبيه عليه الصلاة والسلام اللذين يشكلان نبراس حضارته ومقياسها يرفضان الفلسفة الأخلاقية لهذه الحضارة .

وإن أخلاقه السياسية والحربية والحضارية التى تحفظها ذاكرته التاريخية لتقدم له نماذج أرفع بكثير مما قدمته هذه الحضارة المعاصرة ... وبالتالى فلا معنى لأن يترك الأعلى ويهبط إلى الأدنى .

على أن الجوانب التكنولوجية التى تزهو بها هذه الحضارة — وهو زهو فى موضعه لو أمكن لها تسخير التكنولوجيات لخدمة التطور الروحى للإنسان ... هذه الجوانب لا تتعارض — أبداً — مع الفكر الإسلامى ، بل هى مما يجيده الإسلام باعتباره الدين الذى يحث على العلم

ويعتبره عبادة ، ويسوق قرآنه نحو سبعمائة آية تدور حول العلم والفكر واللب والعقل •

وفى حكم الشريعة الإسلامية ـــ كما يدرك المفكر المسلم ـــ أن تخلف المسلمين فى علوم الآفاق والطبيعة والرياضيات البحتة والتطبيقية والكيمياء والطب والقضاء ••• إنما هو إثم يقع على مجموع الأمة باعتبار التقدم فى هذه العلوم (فرض كفاية) يقع واجبه على جميع المسلمين إذا فعله بعضهم سقط عن الباقين ، وإذا لم يفعله بعضهم يأثم الجميع ، والقيام به يصبح (فرض عين) على من يمكنهم القيام بواجبه •

وفى ضوء هذا فلا انشقاقية فى فكر المسلمين بين علوم الروح وعلوم المادة •• بل هما معاً ضرورتان للحياة ممتزجتان امتزاجاً كاملا ، بل يخدم كل منهما الآخر ، ويحمى ـــ على درب الحضارة ـــ خطاه •

الطريق لإقامة حضارة إسلامية معاصرة :

إن الفكر الإسلامى ـــ فى هذه المرحلة الناضجة من وعيه ـــ قد وصل إلى منعطف خطير فى تفاعله ـــ أو صراعه ـــ مع الحضارة المعاصرة ••• ولقد أصبح (واجبا) عليه أن يطرح البديل لسكونه الحضارى فى قرون التوقف ـــ من جانب ـــ والبديل لحضارة الحركة المجنونة التى تكاد تفقد معظم الضوابط والمعايير ـــ من جانب آخر •

وطريق الفكر الإسلامى ـــ عند هذا المنعطف ـــ ليس

طريقاً ســهلا ، كما أن ما قطعه من أشواط ـ خـلال صراعه الطويل مع الحضارة الأوربية ـ لم يكن ســهلا كـذلك .. فالصراع ـ برمته ـ قضيةو جود .

ولابد لعبور هذا المنعطف الجديد من ترسم المعالم التالية : ـ

أولا : الثقة المطلقة فيما قدمه القرآن من صياغة للحياة، وفيما قدمته حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لنامن نموذج قرآنى مثالى .. ولئن كان غيرنا ـ بالعقل المحصن ـ مثـل (ما يكل هارت) قد جعل محمداً (العظيم الأول) فى التاريخ فإننا ـ بالعقل والإيمان ـ يجب علينا ـ إذا أردنا إنقـاذ أنفسنا من وطأة النموذج الغربى للحياة وإنقاذ البشرية كلها ـ من العودة بثقة كاملة إلى القـرآن نتلوه كأنما أنزل علينا ونتمثل سلوك نبينا باعتباره المثل الأعلى لنا .

ثانيـا : إن الفكر الإسلامى فى مواجهته للحضارة المعاصرة لم يتخلف فى المجال التكنولوجى أو المـادى فقط ، بل إنه تخلف فيما هو أخطر ، فقد ترك العلوم الإنسانية من تربية واجتماع واقتصاد وعلم نفس وإعلام ومناهج بحث تاريخى وفلسفى وجغرافى للحضارة المعاصرة ، وعاش هو يجتر ماضـيه دون مواكبة للوسائل الحديثة المتطورة ، ولا أمل فى مواجهة الحضارة المعاصرة مع الخضـوع لنظرياتها وفلسفاتها فى هذه العـلوم الإنسانية المتصلة أوثق الاتصال بصياغة الحياة وفلسفتها ..

وعلى الفكر الإسلامى أن يقتحم ــ بالضرورة ــ هــذه العقبة ، وأن يبنى المؤسسات الإسلامية الأصيلة ... جوهرًا ــ والمتطورة وسائل وطرائق بحث فى المجــالات التربوية .. والاقتصادية (وقد قطع الفكر الإسلامى شوطًا طيبًا نظــريًا وعلميًا فى هذا المجال) والاجتماعية والإعلامية «والسيكولوجية» وغيرها ...

ثالثــا : وفى ظل المعلمين الســابقين : (الثقــة فى القــرآن والرسول) و (إقامة صرح التصور الإسلامى للعلوم الإنسانية) على المسلمين أن يدخلوا معترك السباق التكنولوجى والمادى ، ونقطة البداية فى هذا الموضوع هو التقليل من (الاستيراد) إلى أقصى حد ممكن ، وتشجيع الاختراع والصناعة الإسلامية مهما كانت بدائيتها ، وإذا كانت الهند ــ كلها تقريبا ــ تركب سيارة (امبسادور) الهندية بدءاً من رئيس الجمهورية والوزراء وحتى المواطن العادى ، مع أنها سيارة بدائية جدا بالنســبة للســيارات الأمريكية وحتى اليابانية ــ فأحــرى بنا نحــن المسلمين ــ بل إنه لواجب شرعى ــ هجــر هذه الســيارات المستوردة الفارهة والإصرار على أن تكون لنا سيارة إسلامية .. ثم طائرة إسلامية .. ثم أسلحة ... وهكذا ... مهما كانت بدائيتها ... ولا طريق للتطور الحق إلا عن هذا الطريق ... أما طريق الاستيراد ، فهو طريق المــوت البطىء ... والتبعية الذليلة ، وهو ليس طريق البناء الحضارى على أيــة حــال ..

رابعـاً : وبما أن الرفض وحده ليس كافيا فى علاج أية أزمة حضارية فلا بد من اعتماد سياسة البدائل ، فمع رفضنا لكل التصورات غير الإسلامية علينا أن نخضع مكانه البـديل الإسلامى « المبرمج » المخطط له الذى يشبع سـائر الطاقات ويملك الوسائل الفنية المعاصرة ، ويحتفظ بمقومات التصـور الإسلامى السليم .

وهـذا الأمـر يجـب أن نطبقـه فى (الفـن) رواية ، ومسرحية ، وفيلماً ، وتمثيلية ، وأن نطبقه فى النظريات الإعلامية والتربوية والاجتماعية ووسـائل الترويح والتثقيف المختلفة ، وفى المجالات الاقتصادية أيضاً .

(فالبديل) هو (الحل الحضارى) الصعب والضرورى ، وأما مجرد (الرفض) فهو أمر سـهل يستطيعه كل عـاجز وضعيف .

خامسـاً : وتجنباً لعثرات الطريق الذى انحدرت إليـه أوربا كرد فعل لما أرادت الكنيسة فرضه على الحياة من زهد وكبت وإرهاب ، فإننا يجب أن نلتزم بمنهج الإسلام فى احترام الفطرة الإنسانية وتيسير كل السـبل لتصريف الطـاقات الإنسانية فى المصارف الحلال وبالتالى فيجب فتـح نوافـذ الحلال على مصراعيها ــ فى الإطار الإسلامى المتوازن ــ حتى تغلق أبواب الحرام التى فتحت على التجربة الأوربية بتأثير المنهج الكنسى العقيم ... فعلينا تيسـير عمليـات الزواج

وجعلها حقاً للفــرد على المجتمع ••• وتيســير « التزويج » الحلال ، والعمل الحلال ، وإنهاء عصور القهــر السياسى ، وإذلال الشعوب باللقمة والسكن ، وتبديد طلقتها فى مشكلات الحياة اليومية ، بينما يخطط غيرها لما بعد القــرن العشرين ، ولما بعد المراكب الفضائية ، وحرب النجوم ••• بينما ينكفىء المسلم على نفسه محاصراً بهذه (المقا تل) المعاشية والسياسية والاجتماعية التى تخنق فيه طاقات الإبداع وتشــل طموحاته العظيمة •

ســادساً : إن أية تنميةأو عملية تحضير بدون (إنسان مؤهل قادر) هى عملية خاسرة ، ولن تغنى المبــانى العملاقة المجهزة بأحدث الوسائل العصرية عن (بناء الإنسان) نفسه ، ولا بناء للإنسان إلا إذا كوناه تكويناً عقدياً سليماً ، وزرعنا فيه الانتماء لدينه ولأمته ، واحترامنا (عمره) الذى هو (وقته) فاختصرنا له الإجراءات الروتينية المدمرة ، وقمنا بثورة (إدارية) فى شتى المرافق بحيث تختصر (الإجراءات) بنسبة لا تقــل عن (٩٥ ٪) من الأساليب المطبقة حالياً ••• !!

ســابعاً : ومع إيماننا الكامل بأن الأسباب الداخلية هى أهم الأسباب فى عملية التحضير (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فإننا نرى أنه مــن الحتم على الفكــر الإسلامى أن يقوم بتحرير الأمة المسلمة من قيــم الجمــود والجزئية والعقم وضيق الأفق التى ورثتها الأمــة من بعض عصور الانحطاط والتى ضربنا لها مثلا بالذين رفضوا تسليح

تركيا بالسلاح الحديث ، وهو مجرد مثال يوجد له نظائر بالمئات ... بحيث أن الفهم (الهرمى) لحقائق الإسلام أصبح مقلوباً ، فوضعت الفروع مكان الأصول فى بعض الأحيان ، وأغفل التركيز على أساسيات الحياة الإسلامية كالعدل والشورى وحماية حقوق الإنسان المسلم وعمليات إبادة الشعوب الإسلامية وبيع حقوقها وكرامتها لأعدائها ... بينما يتركز اهتمام بعضهم على بعض السنن والنوافل وهيئات الصلاة ... وحرمان المرأة من المسجد !!

— وفى المقابل — وبالقدر نفسه — يجب حماية الأمة المسلمة من القيم الاغلالية الوافدة من المستغربين الذين سقطوا تحت تأثير الإشعاعات الأوربية وانبهروا بها .

فالمنهجية النقدية الواثقة يجب أن تكون (المبضع) الذى نتسلح به فى وجه القيم الضيقة ، والقيم المتفسخة ..

وأمامنا — بعد كل ذلك — الميزان الذى نتمسك به .. ولن نضل — بإذن الله أبداً — مهما طالت غربلتنا للماضى ، ومهما تعددت مجالات صراعنا وحوارنا الفكرى مع الحضارة الحديثة ...

ذلك لأننا لانصارع هذه الحضارة — ولا نحاورها —

بفكر مجرد لا قواعد له ــ وإنما نتعامل معها بفكر الإســـلام ذى القواعد الثابتة والحـــوار المنطلق الرحب الذى لا يرفض الإفادة من شتى التجارب الحضارية التى تريد ــ بحق ــ أن تخدم قضية الإنسان على هذه الأرض !!

الفصل الثالث

الأزمة الحضارية المعاصرة للمسلمين

وفقه التاريخ

مناهج ردود الأفعـال : ـ

ليس شباب الأمة ــ أية أمة ــ عضواً مقطوعاً عن سائر الأعضاء إنه مرحلة من المراحــل التى يمر بها كل المجتمع ، وهو ــ حين يمر بهذه المرحلة ــ لا يعدو أن يكون عضــواً ــ وإن كان العضو القوى ــ فى جسد الأمة . وعندما نحــاول رصد عضو من أعضاء المجتمع ، أو مرحلة من مراحلة ــ سواء كنا بصدد قضية كالطفولة أو الشباب أو المرأة ــ مثلا ــ فإننا يجب أن نكون واعين بالأبعاد الاجتماعية والإنسانية كلها ، إذ ليس هؤلاء جميعاً إلا أجزاء يتبادلون نوعاً من التفاعل الذى يربط الأفراد بالجماعة ..

والمنظور الصحيح يقتضى .. ونحن نعالج قضية ما ــ أن نعطى لمجموع العوامل والقوى الفاعلة نصيبها ، وأن يكون تحليلنا قائماً على أساس (البناء الكلى) الذى أفرز لنا وضعاً خاصاً تتسم به كل شريحة من شرائح الأمة ..

ولقد بقيت كثير من المناهج تنظر إلى بعض الأوضــاع نظرة جزئية محدودة ، وتصف لها علاجاً منسجماً مع نظرتها .. فهى تحاول ــ فى مواجهة ما تراه مثلا ــ من تخلف علمى ــ أن توصى (بالتربية العقلية) ... وفى مواجهة ما تراه مــن أنانية فردية ــ توصى بالعمل على إيجاد (الروح الاجتماعية) ... وفى مواجهة الفراغ وما يتبعه من سلوكيات سلبية توصى

(بملء الفراغ) ببرامج ترويجية وتثقيفية ورياضية — وهكذا يمتد العلاج متتبعاً كل حالة (مرض) أو (سلبية) •• دون أن يكون لهذا الدور والتسلسل ، والدور والتسلسل المضاد ، أية نتائج إيجابية تسمح بمردود حضارى ملموس •

إن مثل هذه النتائج العاجزة ، والتى تحاول معالجة أوضاع الأمة الإسلامية الاقتصادية والثقافية والنفسية والاجتماعية بهذه الأساليب •• لم تصل — كما أنها لن تصل — بالأمة إلى انبعاث حقيقى ••

— لقد حاولنا علاج تبعيتنا السياسية للشرق والغرب منطلقين من هذا المنظور •

— ولقد بذلنا الكثير — ولا سيما الشباب — حتى وصلنا إلى ما يطلق عليه بعضهم « الاستقلال » السياسى ، الذى انتقل من كونه (ظاهرة صحة) إلى كونة (مرضاً) ظواهره التجزئة والحدود المرسومة والإقليمية الجغرافية الانفصالية ••

— ولقد حاولنا علاج تخلفنا الاقتصادى بالمنظور نفسه •• فكان أن تورطنا فى نظريات لا صلة لها بنا ولا بأمراضنا الحضارية •• ولقد استوردنا بهذه النظريات دواء لا علاقة له بأمراضنا •• لمجرد أن مرضى آخرين استعملوه ، حتى إننا لم نفكر فيما إذا كان هذا الدواء الاشتراكى أو الرأسمالى قد نفع أصحابه الأصليين أم لم ينفعهم ••• !!

وفى المشــكلات الثقافية والفنيــة والجمالية والنفســية وقعنا فى الخطأ نفسه ، وتجاوزنا عن إدراكنا الشامل لحقيقتنا، ولظروفنا الحضارية الموصولة بتكويننا التاريخى ••• ورحنا نعالج الأمور بمذهب فنى نستورده من هنا أو (رؤية جمالية) نستوردها من هناك •• أو بعض مصطلحات غائمة لا مضمون حقيقى لها فى كياننا ووجداننا الشعورى نبتسرها ابتســاراً من الحديقــة التى أنجبتها ••• واختلطت فى أيدينــا أنواع الأدوية حتى أصبحت مزيجاً لا يصلح لشىء •• بل أصبحت هذه الأدوية داء جديداً يفسد مرحلة الخروج من الاستعمار السياسى ، ويجعل أعضاء الجسد الإســلامى يهــدم بعضها بعضاً •• فالقلب يختلف مع العقل •• والروح تنفصــل عن الكيان ، والكيان الواحد صار عدداً من الكيانات المتناقضة ، حتى وإن بدا فى الظاهر كياناً واحداً •

القضية الأساسى : معرفة البداية :

خلال القرنين المنصرمين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة كانت الأجيال المسلمة تعيش عصراً من أشد عصورها قســوة ووطأة •• وكانت مفردات الامتحان صــعبة للغــاية ، ولعلها كانت أكبر من المستوى الحضارى الذى يعيشه عقل الإنسان المسلم •• والغريب فى هذين القرنين أن عوامل الانهيار كانت تلتحم التحاماً كبيراً بعوامل النهوض •• فبينما كان الاستعمار السياسى والعسكرى ، وما يتبعه من غزو تغريبى يجتاح العالم

العالم الإســلامى ويعرض حلولا تغريبية وعلمانية ومــادية وانفصالية عن الحضارة الإســلامية ، كانت خمائر النهضــة الحقيقية تبرز متألقة فى عدد من المبــادىء والشخصيات فى الوقت نفسه •• كما استطاع الإسلام أن يجهض الانتصــار التترى العسكرى والسياسى ، ويحــول التتــار إلى جنــود للإسلام ، فكذلك نجح الإسلام فى أن يجهض الانتصار السايسى الأوربى ، وظهرت على امتداد العالم الإسلامى حركات واثقة تفصل فصلا كاملا بين الانتصار الساسى ، وبين الانتصــار الحضارى • وتقدم تصوراً (بديلا) نابعاً من التجربة الحضارية الإسلامية لكل ما يطرحه الغرب من مقولات ونظريات •• بل وترى فى التقدم الغربى العلمى و (التكنولوجى) (سيف جالوت) الذى سرقه (الغرب) من المسلمين ، حين جلس تحت أقدامهم يتتلمذ على علمائهم فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة وصقيلة، وبجاية والقيروان والقاهرة ، وفى الحــروب الصــليبية التى استمرت مدة قرنين ثم جاء (الغــرب) يقتــل المسلمين بهذا السيف الذى سرقه فى غفلة من أصحابه الذين كانوا يمــرون بمرحلة غرور تخديرى حضارى ، فى نفس قرون تفاعل الغرب مع القيم الإسلامية التى نقلها خلال احتكاكه بنا • !!

وبينما كانت فرنسا تحتفل بمرور مائة عام على احتلالها للجزائر ، وكان مندوبها الســامى يعلن فى الاحتفــالات نعى الجزائر المسلمة العربية إلى الأبد ، فوجىء العالم برجل يلبس العمامة والبرنس المغربيين يتحدى •• ومن ورائه جمعية العلماء

المسلمين الجزائرية — كل عمليات الإبادة الحضارية ، ويعلن من خلال دروس للقــرآن فى قسنطنية بالشرق الجزائرى — أن (الهوية) الجزائرية الإسلامية مازالت تتحدى ، وأن « شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينسب » •• ولا تمر بضع عشرات من السنين من الجهاد الفكرى والدموى حتى تتحــول آلاف الكنائس التى لم يتبعها — ولا جزائرى واحد — إلى مساجد ، وتعود اللغة العربية اللغة الرسمية ولغة الحيــاة •• وتعــود الجزائر بفضل حركة الثقة فى الذات الإسلامية إلى الحضارة الإسلامية ••

ولئن كانت الجزائر مثلا اخترناه لبروزه ، فالحقيقة أن الوعى بحقيقة الذات المسلمة كان وراء كل حركات التحرر ، حتى وإن سرق الثمار بعض المعادين للإســلام الذين زرعهم الاستعمار بعد أن أحس بحتمية خروجه ، وبعد أن امتلأ حقداً على الإسلام الذى قاد حركة التحرر •• فأراد أن يحول دون أن يجنى الإسلام الثمرة التى غرسها •

ومع ذلك ، فإن الأمر كان — كما ذكرنا — يقــوم على اشتباك عوامل السقوط بعوامل النهوض ولئن كان المتنكرون للإسلام وحضارته قد سقطوا فى المعادلة الحضارية السليمة للتقدم ، فإن بعض أنصار الحضارة الإســلامية قد سقطوا أيضاً ، حين راحت جماعات منهم تحــاول رفض الحيــاة فى الحاضر والمستقبل بالجملة ، وتتعامى عن التحديات الجديدة •

وأصبح الماضى — بدل أن يكون الطريق المضمون للمستقبل — يطرح — فكراً وتطبيقاً أحياناً — وكأنه البديل للمستقبل .

وعادت إلى الفكر والواقع كل أمراض الماضى تطرح نفسها — مع ثبوت فشلها — باعتبارها حلولا للمستقبل .. فعادت القومية ، وعاد الجمود العقلى ، وعادت المعارك الفكرية الوهمية فى القضايا الكلامية واللفظية ..

وهكذا — إما لبواعث التخدير الطارئة بعد الحروب الصليبية — أو لعوامل التخدير الذى سببته بعض العلوم المحسوبة على الإسلام — راحت جماعة من المسلمين تولى وجهها شطر الماضى بنظرة تكرارية ، وكأنها تريد إعادة الدورة الحضارية الماضية بكل عناصرها وتحدياتها وأبطالها وحبكتها ومقدماتها ونهايتها ، ولهذا فهى لا تريد أن تقف من هذا الماضى العظيم (النموذجى) — كما ينبغى — موقف الاحتذاء والتأسى والإضافة إليه ، والانطلاق منه نحو المستقبل .. كلا .. بل راحت تلغى (الحاضر) وتستنكف رصد (المستقبل) و لا تلتفت حولها إلى ما يدور على الشاطىء الآخر فى غرب الدنيا من عالم جديد يطرح نمطاً جديداً للحياة وتحديات فكرية ومعاشية جديدة ... بل على العكس .. وجدنا بعض الأبطال الذين اندثروا وفقدوا وجودهم ، وانتهت (المشكلات) التى (أحدثوها) والمشكلات الأخرى التى (واجهوها) ، وبليت «الأسلحة » التى حاربوا — أو حوربوا — بها .. لقد وجدنا هؤلاء

(الأبطال) يعودون — مرة أخرى — وكأن الزمــان مــازال زمانهم ، وكأن الحياة قد جمدت عند أعتابهم •• مع أن نهــر الحياة دافق بالحركة لا يتوقف عند أعتاب أحد •

— لقد عاد المنطق اليونانى القديم •

— ولقد عاد الماتريدية من جديد ••

— وعاد الأشــاعرة •

— وعــاد المعتزلة •

— وعاد المرجئة •• وبإيجاز عاد (علم الكــلام) كما كان يفرض طابعه (الكلامى الجدلى) على واقع لا يتحمله ••

— وعادت قوافل الصوفية التى خدرت العالم الإسلامى ردجــاً مــن الزمــــان ••

— وعاد الفقهاء يحملون معهم — إلى جانب التعصب — تلك العوامل التى أدت إلى إهمال طريق (الســنة الشريفة) الذى هو السبيل الوحيد لإدراك حقيقة الإسلام ••

وليس (المنطق اليونانى) — فى الحقيقة — ولا عــلم (الكلام الجدلى) ولا (الفقة التعصبى) ولا (التصوف) إلا صوارف عن هذا الطريق ، وتمزيقاً للرؤيــة ، وعــودة — غير حميدة — لعصور سيطرت فيها عوامل التخلف على الحقيقــة الإسلامية •

السنة والنموذج القدوة : —

إن صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يفهموا القرآن الكريم ولا سنة النبى على أساس هذا (المنطق الصورى) ولا (علم الكلام) !!

ولم يكونوا بحاجة إلى (تصوف) يعلمهم كيف يتفاعلون مع كتاب الله أو كيف يقومون الليل ... كما أن التفريعات الفقهية المصحوبة بتعصب لم تكن من أركان منهجهم ولا من منهج قادة المذاهب الفقهية أنفسهم (رضى الله عنهم) .. بل إن أكبر خسارة لحقت بنا هى ربط فهم الإسلام بهذه المعتقدات اليونانية أو بالأصول الكلامية الجدلية المتواضع عليها عند أصحابها ...

إن هذا قد أدى إلى ظهور منهج (فنى) جديد لتدبر الإسلام وفهمه وبيان مسائله — مغاير تماماً لمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام (1) وهكذا .. تمحص القرنان المنصرمان عن استقلال سياسى (ناقص) يكاد يفقد جدواه ... إذ أنه — ولا سيما بعد بداية عصر الاستقلال وهدوء حدة العداء للغرب الاستعمارى — بدأت أفكار مفسدة تطرح بقوة .. وبدأ ميزان الحقائق يختل فى عقول الأجيال المسلمة .. وضاعت معالم الحق ، ووجد متعلمو الشباب

(1) انظر وحيد الدين خان ، تجديد علوم الدين (تحت الطبع دار الصحوة بالقاهرة) .

أنفسهم وسط طرق كثيرة متناقضة ، كل طريق له رجاله ودعاته ونماذجه القيادية التى يطرحها ، وحتى نموذج الرسول (الذى هو نموذج السنة ــ أى طريق الرسول) كدرت منابع التلقى عنه تلك الطرق التى تحدثنا عنها فابتعد العقـل المسـلم عن منطقة الجاذبية النبوية ، واستقطبتهم إليها (فى رحـلة تية) نماذج أخرى •

* * *

إن الشباب ليحس خلال التناقض الذى يعيشه فى عصرنا أنه يفتقد القدوة الصالحة فى القيادات المتعددة ، وتأثير القدوة فى النفوس أقوى من تأثير الأقلام والخطب ، وتاريخ المسلمين ملىء بنماذج من الرجال الأكفاء الذين كانوا منارات هــدى وسبل نجاح للأمة ، وعلى رأسهم الرســول القائد صلى الله عليه وسلم الذى خرج جيلا من القادة ما جاد الزمان بمثلهم ، ثم كان فى تاريخ الإسلام رجال غيروا وجه الحياة وعكســوا مجرى التاريخ للأحسن ، وكانت القدوة موجودة فى كل مكان! فى السياسة والعلم ، فى الحرب والدولة ، فى الدعوة والجهاد ••• وقد دفع هذا النقص الشباب إلى أن يدرس حياة شخصيات زينها الباطل ، وأوجــدتها الدعــاية ، من علمــاء وسياسيين ومفكرين ، كفرة ومسلمين ، ولم تكن شخصية من هذه الرموز إلا ولها عداء للإسلام وحرب عليه ، ولذلك يفتقــد العــالم الإسلامى مثل القــدوة التى غــيرت وجــه التاريخ وحققت

الانتصارات الحربية والعلمية والأدبية ، وتقلب المجتمع إلى مصاف المجتمعات التى تنتج وتبتكر ، وتكتشف ، وتضيف إلى التمدن والحضارة مثل ما أضاف جيل الحضارة الإسلامية الزاهر (١) .

والشباب يعلم أن الزيف استشرى فى أوجه الحياة ، وأن اليأس من التغيير يكاد يجمد النفوس الضعيفة ، ومناهج الدراسة لاتجد فى حياة المعاصرين من يمثل تلك القوة فتلجأ إلى قادة المسلمين السابقين ، وربما كانت السلسلة لا تتعدى عهد صلاح الدين الأيوبى وإلا قليلا ، مع تعمد إهمال بعض الرموز التى غيرت من فكر الشباب واعتزازه بدنيته وتاريخه وأمته وفكره ، بل بتشويه الصورة الطيبة التى قدموها أنموذجاً للأجيال ، ثم إبراز شخصيات كانت سبباً فى تعاسة الشعوب وتخلفها وهزائمها ، الأمر الذى يقابله الشباب بالسلبية والتعجب ، حيث انقلبت الموازين وأصبح الزيف حقيقة والباطل حقاً والجبان بطلا والخائن أميناً ، والبخيل كريماً (٢) .

* * *

إن (السنة) (التى ندعو إليها — أى العودة إلى طريق الرسول) لا تعنى الالتزام ببعض الجزئيات والنضال دونها

(١) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب — قطر — ص ٦٦ .
(٢) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب ، الحلول المطروحة والحل الإسلامى ص ٦٧ .

بل تعنى التفاعل الكامل مع نسق الحياة التى قدمها — بأقواله وأفعاله وتقريراته — إمام حضارتنا محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) عبر (دورة) حضارية متكاملة تنتظم سائر الحالات الإنسانية ... إنها تعنى الانغماس فى صناعة التقدم الإنسانى وفق الصياغة المتوازنة والإيجابية التى قدمها الرسول وصحابته ، بحيث نجح هذا الجيل أن يستجيب الاستجابة المثلى للتحديات التى واجهته عندما فتح الله له فارس والروم ...

والسنة — أيضاً — تعنى وجود خريطة واضحة للحياة الإنسانية التى يريدها الإسلام ووجود أهداف شاملة محددة لهذه الحياة ... وذلك على العكس من الطرق الصارفة عن السنة تلك التى تنتهى إلى حصر حياة المسلم فى نطاقها ، (صوفيا) كان أو (فقهيا) أو (كلامياً) بل والزود عن هذا (النطاق) وكأنه كل القضية .. والإذابة — بالتالى — لمعالم الخريطة الشاملة والمنهج الواضح والأهداف المحددة للمسلم فى هذه الحياة التى استخلف فيها ، ووكل إليه أمر عمارتها — بعون الله .. بل إن (الصوفية) — مثلا — تجعل الحياة لامعنى لها ... وتدعو إلى (غيبوبة) اجتماعية ، وتعطى قيمة (العمل) و (التغيير) و (الإبداع) فى الحياة دوراً ثانويا لا قيمة له .. بل وتدعو (الذات الفردية) إلى إماتة نفسها ، ليس استعلاء على المادية والسباق الحضارى — مع القدرة عليهما — بل انسحاباً من دخول معركتيهما .. وترك مجاليهما لأعداء الحضارة الإسلامية !!

أجل .. إن البداية هى أن نتجاوز كل الصوارف ،

ونتفق على النموذج والإمام والأسوة ونرفض البدائل ، ونحترم كل من قادوا حضارتنا إلى طريق السنة ، حتى وإن بدوا أمام عقول القاصرين وكأنهم صرفوا الناس عن السنة (إن صح الحديث فهو مذهبى — الإمام الشافعى) ...

إن الرسول الذى رفض إسقاط النزعات الفردية الجامحة على الحقيقة الإسلامية المتوازنة ، وقال لدعاة الإسقاط الفردى : (إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له ، لكنى أصوم وأفطر، وأنام وأقوم ، وأتزوج النساء ...) .

هو — وحده — دون كل النماذج . الجدير باقتفاء أثره والتأسى به .

إن راعى الغنم ، وتاجر خديجة ، وقائد بدر وأحد والمؤتمن على أموال أعدائه والقاضى بين الخصوم وهو يخشى أن يلحن أحدهما فيخدعه ، وزوج عائشة وأبا فاطمة وإبراهيم ، ومحتسب الأسواق ، والسمح اللين حين القدرة ، وليس الحقود الذى يتباهى بتصفية خصومه بطريقة دموية .. والذى يجوع كما يجوع الناس ، وينام على الحصير حتى يؤثر فى جنبه ، وإمام الناس فى صلاتهم ، ومعتكف المسجد ، وحافر الخندق، وحبيب أبى بكر وعمر أكثر من نفسيهما ...

هذا الرسول الإنسان الذى عاش الحياة بكل أعماقها ، وابتلى بخيرها وشرها ، وقدم لنا (تجربة كاملة) للإنسان

الإيجابى •• الذى يحترم (الإنسان) — فى نفسه — وفى غيره — ويحترم الحياة (الوقت) لنفسه ولغيره •• والذى يؤمن بدور الإنسان الرائد فى الحياة •• وبدوره الفاعل فيها حتى ولو لم يكن له نصيب من الحصاد ••• « إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها » هذا (الإنسان) — الرسول — الذى عامل كل الناس وتعامل معه كل الناس باعتبارهم (أناسى) لا باعتبار هوية (طبقية) •• ولا مذهبية (مادية) ولا جاه اجتماعى ، ولا مركز سياسى ••• ولا مصلحة شخصية •• بل وجد الجميع فى ظله المعنى الحقيقى للإنسان •• والأهداف الصحيحة للحياة الإنسانية هذا (الإنسان) هو وحده — وليس أى بطل آخر فى تاريخنا ، ولا أى صاحب مذهب مادى أو اجتماعى أو فلسفى نستوره من خارج إطارنا الحضارى الذى يستحق أن نتأسى به ونترك أزمتنا له •

إن تمثل حياته « سنته » وإن الإيمان والسعى نحو الالتزام بما تركه فينا من قيم وعبادات وتشريعات وتجربة عملية •• هى البداية الصحيحة للخروج من معترك الأفكار الضبابية ، والتمزقات المذهبية والاتجاهات الوجدانية والعقلية والكلامية التى شتت رؤانا ومزقت خطواتنا وأضاعت كثيراً من المعالم الصحيحة أمام شبابنا المثقف ، من خريجى الجامعات أو من الذين تعلموا بطرق أخرى فضلت خطواتهم على الطريق ، واتجهوا إلى الشرق والغرب ، فى رحلة تيه وضلال •••

ولقد كان العامل الأكبر — بالتالى — وراء بروز « عصر الضباب » وهو المصطلح الذى يصح أن نطلقه على مسيرتنا

فى القرنين الماضيين — هو أننا سمحنا لذاتنـا أن تتبعثر ، وسمحنا لعقلنا أن يتفلت من جاذبية السنة ، ويرنو إلى عـدد من التجار بالتى انبهر بأضوائها أو ببعض صور التقدم التى أحرزتها ••• بل إن شباب هذا العصر ، والشباب الذى يعيش آثار مسيرة هذا العصر لم يجد أمامه طريقاً واحداً يمشى فيه ، بل وجد كوكبة فى كل شيء ••• : كوكبة فى الآراء الاقتصادية ••• وكوكبة فى أساليب التحرر السياسى ••• وكوكبـة فى الآراء الاجتماعية ••• وكوكبة من النظريات الفلسفية التى تفسر كل منها الحياة بطريقة تتنافس مع الأخرى •

وقد ساعد على هذا الضياع أن حجم الأمة فى هذه المرحلة لم يكن قويا يتحمل هذه الأدوية المتناقضـة ، فلكـل مرحلة حضارية قدراتها على الاستجابة للتحديات ••• وقـد كانت المرحلة تقتضى التشبث بالمنهج القادر على تحقيق الاستقرار ، وتوفير الانطلاق والإبداع ، وليس شرطاً أن يكون ذلك (بستار حديدى) حتى نتجاوز المرحلة — كما فعل الاتحاد السوفيتى — ولا بعنف دموى — كما فعل (بسمارك) فى توحيد ألمـانيا — ولا بسلسلة من الحركات الدموية التى تفتقد الهوية والهدف كما فعلت كثير من الشعوب الإسلامية التى لم تصل فى النهاية إلى شيء ••• !!

كلا ••• فمنهج التحول الإنسانى نحو طريق الحضارة — ولا سيما حضارة كالحضارة الإسلامية لديها الكثير ممـا

تعطيه للعالم ومما يفتقده العالم ـــ كان يحتاج فقط إلى المنهج الذى يتلاءم مع إنسان المرحلة ، ومع طبيعة المرحلة ، ومـــع التحديات التى تحتاج إلى استجابة تلائم المرحلة نفســـها ، ويعبر ـــ كذلك ـــ عن التيار التاريخى والنبض الخاص والشروط الاجتماعية وطموحات الأمة نحو التميز والسبق الحضارى •

إنسان الجامع والجامعـــة :

ثمةمفارقة غريبة يلمحهـــا الناظر المتعمـــق فى منعطفات مسيرتنا الحضارية فذات يوم كان (الجامع) هو المسيطر على حضارتنا ومسيرتنا نحو صناعة التقدم ، وحتى مع سبقنا فى بناء (الجامع الأزهر) و (جامع الزيتونة) و (جامع القرويين) والمدارس النظامية ••

كانت صناعة الإنسان هى الشغل الشاغل للمربين والمعلمين والدعاة والجوامع والمدارس والوعاظ •• وكما كانت الجاهلية تحتفل بميلاد شاعر لاعتبارات خاصة بها ، فقد أصـــبح ميلاد داعية فقيه أو محدث أو مفكر عملا من أعظم الأعمال •• ولم نعرف ـــ أبداً إلا فى عصور الهوان ـــ تخريج الفقهاء أو علماء الكلام أو المحدثين أو الوعاظ فحســـب ، بل كان كـــل هؤلاء يتخرجون (دعاة) قبل أن يتخصصوا فى أى (فن) يريدون ••• بل حتى مرحلة (الفنية ـــ الحرفية) هذه كانت شبه عيب يلحق بمن يوصم بها •• وفى ضوء هذا لم يكن العمل قرين العلـــم فقط ••• بل كان الدليل على صحته والثقة فيه وإجازة احترامه وبقـــائه ••

وليس أئمة الحديث فقط هم الذين كان يجب أن (يعدلوا) أو أن يجرحوا ••• بل حتى علماء الجغـرافيا والرياضـيات والطبيعة والتاريخ كان الطعن فى دينهم يحـول دون الأخـذ عنهم ، ويدفع إلى نبذهم • ومع أن علماء المسلمين أجمعوا على أن تاريخ الأمم والشعوب يمكن أن يؤخذ عن أهله المتسلسلين ولو كانوا كفاراً — إلا أنهم — فى المحيط الإسلامى — شرطوا العدول والثقة فيمن يسجل تاريخهم ، ونبذوا من عرف بنحلة فاسدة أو مما لأة لحاكم ••• ووضعوه فى مكان خاص ••

والمفارقة العجيبة ••• هى :

ماذا حدث فى مسيرتنا هذه ؟ ولمـاذا أسقطنا — كغيرنا من الأمم — الربط بين (العمل والعلم) وقلنا بنظرية الفصل بين السلوك الشخصى والمستوى العلمى ، وأهملنـا التربية وركزنا على (التعليم) بدل (التثقيف) الذى هو بمعنى التقويم (ومنه تثقيف الرمح أى تقويمه) وفتنتنا كلمة (الدرجات العلمية) وتوسعنا فى (الكم) — مع أننا فشلنا فيه — على حسـاب الكيف ••• واحتفلنا فى كل عام بتخريج (أعداد) لا بأس بها من الجامعات دون أن نحاول الكشف عن نسبة الـ (٩ ٪) من (النوابغ) التى وصلت إليها (اليابان) فى مقابل نسـبة الـ (٧ ٪) التى وصلت إليها أمريكا ••• (١) ولم نسـأله

---

(١) فى بعض الإحصاءات أنه لا يدخل الجامعات فى اليابان الا ما بين ١٠ — ١٥٪ والصراع شديد فى هذا (انظر التربية فى اليابان) ص ٥٧ طبع مطتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض — ووردت نسبة النبوع هذه فى مرات كثيرة .

أنفسنا يوما : كيف جمع البخارى بين هذا المنهـج الدقيق فى الاستقصاء والبحث وبين هذا السلوك القويم ؟ ولا كيف كان الأئمة الأربعة نوابغ فى علوم الإسلام مجتمعة ••• تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتاريخاً ، بينما كانوا على هذا الإخـلاص لله والبعد عن كل الدنايا ••• وخريجو (جوامع) الأزهر والزيتونة والقرويين فى الأجيال الماضية : ما النسبة بينهم وبين خريجى (الجامعات) الأزهر والزيتونة والقرويين فى العصور المتأخرة بعيداً — بالطبع — عن الألقاب الكبيرة التى لم يكن يتمتع بها الأسلاف (!!) ؟

إن حضارتنا لم تعرف — فى عصور تألقها — سياسـة الفصل بين ما هو اجتماعى وما هو شخصى ، ولا بين العلـم والسلوك ، ولا بين المؤهل الفكرى والمستوى النفسى والخلقى •• إن هذا (الفصل) ليس مـن مقوماتنا الحضـارية ، بل إن الرسول — عليه الصلاة والسلام وهو أسوتنا وحياته سنتنا — ونحن نعرف عنه كل شىء ، وعظمته عندنا تنطلق من أننا نعرف عنـه كل شىء •• حتى أخص خصائصـه الزوجية وزوجاته التسع — اللائى يعتبرن من أظهر الأدلة على نبوته — كن يكشفن كل شىء ، وقد عاش بعضهن بعده لأكثر من نصف قرن •• وتحدثن فى كل شىء •• وأثبتن أنه — وحـده فى التاريخ — الرجل الذى قامت أكبر الأدلة من داخل بيته وخارجـه على عظمته الكاملة •••

وقد أثبت فى بحث آخر لى ، أن قضية زوجاته التسع من

أمضى الأسلحة التاريخية فى إثبات حقيقة نبوته .. فهو الوحيد الذى كان عظيماً فى بيته ومع زوجات تسع يستحيل تواطؤهن على الكذب !! — على امتداد هذه السنوات الطويلة التى عشنها معه وبعـــد .

والسؤال ما زال قائماً وهو :

كيف نجحت (الجوامع) ولم تنجـــح — كما ينبغى على الأقـــل — (الجامعات) الحديثة — حتى الموســـومة منهـــا بالإسلامية — فى تخريج نسبة المفكرين والدعاة المعقولة ؟ وكيف تعرض خريجوها الشباب لهذه السلبيات الحضارية ؟

إن الإجابة تتلخص فى أن الجامعات خضعت للمنهـــج السائد فى عصور التخلف فتأثرت بالمجتمع ... ولم تقده — كما ينبغى — وسمحت (بالفصل) بين الشخصى والاجتماعى ، والقول والفعل ، والعقل والعاطفة ، والكمى والكيـــفى ... وكانت (الثمرة) هى إهمـــال بناء (الإنسان) ... مع أن بناء (الإنسان) هو (ألف باء) حضارة وتقدم ...

فى مسجد الرسول فى المدينة ، وفى المسجد الحرام فى مكة ، وفى سائر (الجوامع) التى انتشرت خلال القرون المتتالية كان (المتخرج) والفائز (بحق الرواية) (— الذى يزعم البعض أنه الأصل لكلمة — بكالوريوس) يخـــرج إلى الدنيـــا كائنا إنسانيا مختلفا عن الكـــائن الجديد الذى تخـــرجه الجامعات المعاصرة فى العالم الإسلامى ...

كان خريج هذه الجامعات يخرج بشعور من المسئولية يحس معه أنه ممثل لعقيدة عظيمة وأمة ذات رسالة عالمية (حتى ولو كانت أمته فى مرحلة انهزام سياسى — وإلا فكيف تغلب العلماء على التتار المنتصرين) ، وكان يشعر بأن وراءه ماضيا متألقاً وأنه أصبح صالحاً لتمثيله وإقامة الجسور بينه وبين المستقبل ••• وكان يشعر بأن عليه أن يبدأ بدفع الثمن لأمته التى وفرت له وسائل التربية ، ولدينه الذى أشعره بوجوده وإنسانيته ، وحدد له مهمته فى التاريخ ••• وكانت الأهداف اليومية لا تستنزفه ، إما لدينه وثقته فى ربه ، وإما لأن أمته — من جانبها — كانت توفر ظروف الإبداع والانطلاق •

أما خريج الجامعات — فى عصرنا — فتبدأ رحلته مع (الضرورات) اليومية بعد تخرجه ، وهو يحس بأن نبوغه يجب أن يسخر فى سبيل تحقيق هذه الضرورات ، ويشعر — كذلك — بأن على أمته أن تبدأ فى تيسير ما يليق به مكانة ورفاه ••• وهكذا يأخذ الحقوق مرتين مرة قبل التخرج ومرة بعدها ••• وتنزوى (الواجبات) فى مكان ضيق من شعوره وسلوكه لا يكاد يرى ••• وينزوى مع انزوائها الإحساس بالمسئولية •• وغالباً ما تهمد أيضا جذوة الحرارة الإيمانية التى كانت تصنعها (الجوامع) ويتألف الجانب المهنى الجدلى العقلى الذى يبرز ذاته كذات متكلمة لا كذات بناءة فاعلة •••

كان الإنسان يصنع فى (الجوامع) بالسيرة والسنة القولية والعملية وبالفكر الهادف الطموح وبالعلم المستأهل

لصفة (العبادة العظمى) وبالجهاد العقلى والوجـدانى عبر مجالات المجتمع والكون وبالثقافة الإسلامية الشاملة القوية .. أما الإنسان الذى يتعلم ويحصـل على مؤهـل من معظـم (الجامعات) فى عصور التخلف فهو الإنسان الذى درس – بحق – أمشاجاً من الآداب والفنون أو الطب أو الهندسـة أو الرياضيات لقد درس بعض منتوجـات الحضـارة وبعض إنجازاتها ... وأكل من بعض طبخهـا وقطف بعض ثمـار أشجارها .

لكن إنسان (الجوامع) – إنسان الفكر الإسـلامى المؤمن – كان الإنسان الذى تنصهر فى أحشـائه الحقـائق ممتزجة بحرارة الإيمان والأهداف الأخلاقية العليا . فهـو يمثل البنية العميقة التى تصنع الحضارة وتفرزها وتتبـادل مع مجتمعها المتحضر التأثر والتأثير والأخذ والعطاء ...

إن الحضارة التى مثلها إنسان (الجوامع) كانت تفهم مسيرة التقدم على أنها (فكر) ينتهى إلى وعى وعلم ومسئولية تجاه الحضارة الإنسانية ... أما إنسان الجامعات الحديثة فيفهم الحضارة على أنها (معلومات) قد تنتهى إلى هـدف لا ينتهى ..

وكانت الجوامع مفتوحة ليؤمها كل الناس – إن أرادوا أو ثابروا – وبالتالى كانت تخرج عقولا ورجـالا يتمتعون بقدر من (الثقافة) سواء واصلوا المسـيرة أو انطلقـوا فى مجالات أخرى مزودين بما حصلوه ... أما الجامعات فتخرج

(فئة) فقط قد تنعزل عن النـــاس مدرعة بمؤهلاتها فى برجها العاجى أو قد تلتحم بالناس فى إطار (المعلومات) المتخصصة التى استظهرتها ، ولا إطار العمل الحضارى والثقافى الشامل الذى يقود المجتمع إلى الانسجام ودقة الإيقاع والانطلاق .

إن إنسان الجامعات لابد أن يعانق إنسان الجامع من جديد، ولا بد أن يربى على الكيفية الدقيقة التى يجب أن يتعامل مع الدنيا على أساسها ، ولا بد أن تلتحم الآخرة بالدنيا وتتحرك الدنيا فى أعماقه نحو غايتها العليا ... أى تعمير الكون باسم الله ولله ، حتى تصحو أفكارهم إلى سبيل المحافظة عليها ، ثم إلى سبيل استخدامها لتحقيق المبادىء والقيم العليا (١) .. لا بد أن يربى هؤلاء المسلمون على دراية دقيقة بقيمة الحياة التى تخفق بين جوانحهم ، والعاقبة التى سيؤولون إليها بعد موتهم ، حتى يعلموا جيداً متى يستهينون بحياتهم ويضحون بها ، ومتى يتشبثون بها ويحافظون عليها ، دون أن يعـــوقهم عن تنفيذ ذلك أى عائق .

إن هذا يعنى أن مفتاح النهضـــة العلمية والصناعيـــة والانطلاقة الحضارية ، لا يتمثل فى علوم التكنولوجيا والمشاريع ــ فهذه نتيجة وليست سبباً ــ بل ربما تغدو هذه الأســـباب أعباء وأثقالا على كواهل أصحابها ، إن لم تنهض بدورها على قاعدة راسخة من المعارف الإنسانية الرشيدة لا تكتفى بالتغلغل فى طوايا الفكر والعقل،بل تتجاوزها إلى أعماق النفس والوجدان

---

(١) بتصرف من د / محمد سعيد رمضان البوطى : منهج الحضارة الإنسانية ص ١٩٨ دار الفكر .

ذلك لأن الوعى العلمى والتربوى هو الذى يحرك المصانع فى طريقها الصحيحة ويدفع الجهود التقنية إلى النتائج المرضية ، ويحرس النشاطات الاقتصادية المختلفة أن لا تخرف إلى سبل الخيـانة والغلول (١) ... وإلا فما بال المعـاهد والجامعات التقنية — وهى فى شرقنا الإسـلامى كثيرة — لا تغنى عـن أصحابها ولا عن الأمة شيئا ؟ وما بال أولئك الذين أتخمـوا بعلومها لا تستفيد الأمة منهم شيئا ؟ بل إن الأمة لا تفيدهم بدورها — فى كثير من الأحيـان — حتى بمقـومات الحيـاة الإنسانية الكريمة ؟ ... وما بال معظم هذه الأدمغة العلمية التقنية تهجر من أوطانها ، إلى حيث تنتجع لنفسها لقمة عيش هنيئة (٢) ؟ ...

إن الثقافة بمعناها الإسلامى الشـامل يجب أن تتبـوأ مكانتها فى تربية الإنسان عبر الجامعات والمعاهد العلمية .. ويجب أن يكون واضحا أن السلوك الاجتماعى للفرد خاضـع لأشياء أعم من المعرفة وأوثق صـلة بالشخصية منه بجمـع (المعلومات) ... وهذا الشىء الشامل الأعم من المعرفة هو (الثقافة) ... أى بتعبير آخر — مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يلقاها الفرد منـذ ولادته كرأسـمال أساسى فى الوسط الذى ولد فيه ... فالثقافة — بهذا — هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعة وشخصيته (٣) عن طريق

---

(١) بتصرف من د / محمد سعيد رمضان البوطى منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن دار الفكر ص ١٩٩ ط ١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٣) مالك بن نبى : شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ١٢٥ ، ١٢٦ طبع دار الفكر الطبعة الثالثة .

(فلسفة الجماعة) و (فلسفة الإنسان) أى معطيات الجماعة والفرد اللذين يجب أن ينسجما فى كيان واحد (١) •

إن (الحرفية) فى التعليم — بتعبير العلامة مالك بن بنى — يجب أن تتوارى من الجامعات الإسلامية — أى جامعات العالم الإسلامى — ويجب أن تحل محلها الوظيفة الحضارية للثقافة ••• أى صناعة إنسان — من خلال إطار ثقافى منسجم — يتدخل فى سائر أبنيـــة المجتمع ، وينفى منها ما يجب أن ينفى ، ويؤكد ما يحتاج إلى تأكيد ، ويتفاعل معها كما يتفاعل الروح مع الجســـد •

إننا —من كل هذا — لا ندعو إلى أن يفرض أســلوب (الجامع) على أسلوب (الجامعة) فنحن نعرف — بداهة — أن العلوم العصرية تعقدت وأصبحت تحتاج إلى معامل وحقول تجريبية ومكتبات هائلة ••• لكننا ندعو إلى أن تكون الروح المسيطرة على الجامعة — تطبيقية كانت أو نظرية — هى روح الجامع ••• ففى الإســلام ••• كلها علوم واجبة — مادامت نافعة — وهى تتأرجح بين فرض العين والكفاية •• إننا نريد لعلم الجامعة أن تبقى له روحه العلوية ووشائجه الأخلاقيــة وأهدافه الإنسانية إن على الجامع والجامعة أن يتطورا معــاً مستندين إلى فكرة الإسلام (٢) — علماً وإيماناً — وبرامــج

---

(١) المرجع السابق — المكان نفسه .

(٢) انظر بتصرف د / حسان محمد حسان : وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ص ١٦٦ نشر رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة .

وأهدافاً ، وفى الوقت نفسه يتطور التعليم الإسلامى فى المناهج والمحتويات وطريقة الاستيعاب والاختبار ، ووضع الشخصية والسلوك فى الاعتبار التقويمى ، والربط بين الجامعة والجامع والمجتمع ... فقد انفصل الجميع فى فترات كثيرة ، كما انفصلت الدراسة فى الجامع والجامعة عن مشكلات الناس وعكفت على مشكلات الماضى البائدة ... والحلول البائدة للمشكلات البائدة (!!) .

إننا لا ندعو – كذلك – إلى رفض التخصص ... لكننا ندعو إلى أن يكون التخصص موضوعاً فى وعاء الثقافة الشاملة ، وإلى أن يكون المتخصص أهلا لخدمة الحياة وليس عالة – ومستعلياً – على الحياة .

وهكذا – فى سياق واحد – نريد إنسانا جديدا وشباباً جديدا بتكوين جديد نستطيع أن نطلق عليه : إنسان الجامع والجامعة !! .

تكنولوجيا الإنسان الجديد :

إن أمام جامعاتنا فرصة حضارية نادرة ... فمن البديهى أن سباق جامعاتنا مع الجامعات الأوربية والأمريكية فى جمال التكنولوجيا هو سباق معروف النتائج . وبالنسبة لوضعنا الحضارى ، فإن أى تقدم تكنولوجى هو تقدم مطلوب، بل إن علينا أن نقفز – لو استطعنا – أضعاف ما يقفزون حتى

نصل إلى بعض ما وصلوا إليه •• لكن جامعاتنا تستطيع مع ذلك أن تقدم تقنية متميزة وتكنولوجيا موجهة إنســانيا ••• وفى هذا المجال فإن الحضارة الغربية لن تسعى لمنافستنا ••• لأنها قد انتهت من مدة طويلة من مصطلح (التوجيه الإنسانى) ـــ بل إنها لم تعد قادرة ـــ حتى لو أرادت على التحكــم فى مسار التكنولوجيا ••• لقد أصبحت التكنولوجيا هى العربــة التى تقود الحصان ، فإن الإنسان لسوء الحظ قد طور قوى تكنولوجية جديدة قبل أن يعرف كيف يستخدمها بحكمة ، بل أكثر من ذلك هناك دلائل كثيرة على أن نواح تكنولوجية بأكملها بدأت تخرج من مجال سيطرة الإنسان (١) •

وما دام قد سمح للتكنولوجيا بالنمو دون مراقبة مناسبة فقد تصبح قوة مخربة تؤثر على العلاقات الدقيقة التى بنيت عليها المدنيــات فى المــاضى ، وكما تنبــأ الكاتب الانجليزى (أ• م• فورستر) فى كتابه (توقف الآلة) :

« ستسير التكنولوجيا قدما ••• ولكن ليس على خطوطنا التى رسمناها لها ، وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنــا » • وأكثر المسائل التى تثيرها التكنولوجيا ـــ أساساً ـــ اجتماعية سياسية اقتصادية أكثر مما هى علمية فى طبيعتها ، أضف إلى ذلك أن التكنولوجيا غير قادرة ـــ نظريا ـــ على التهرب مــن الرقابة البشرية إلا أنها فى الواقع تســير فى طريق مستقل ،

(١) انظر بينيه دوبو : إنسانية الإنسان ص ٢٢٨ ترجمة الدكتور نبيل صبحى الطويل ـــ مؤسسة الرسالة .

لسبب بسـيط ، هو أن مجتمعاتنا لم تصـنع بعد توجيهـات وضوابط للتحكم بها بالأسلوب الفعال المناسب .

وكل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع (توراة التنمية) كعقيدة ، وتدور فى دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش) وتقول هذه (التوراة) : (انتجـوا أكثر لكى تستهلكوا أكثر ثم لكى تنتجوا أكثر) . ولا يحتاج الإنسان لكى يكون عـالم اجتماع حتى يدرك أن هذه هى فلسفة مريضـة ... مجنـونة . فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلا ، فضلا عن الاستمرار الدائم إلى ما لا نهاية . والواقع أن هذا النمو قـد يتوقف فى فترة أقصر مما يتوقعه الوعى النـامى بين جمهور المثقفين ، والذى يعتقد أن النمو التكنولوجى بدون ضوابط يضر بصفات (الكيف) لحياة الإنسان .

وفى حديث بعنوان : (هل تستطيع أمريكـا التغلب على خرافة النمو) ؟ كان سكرتير وزارة الداخلية (ستيوارت .ل. أودال) شجاعا عندما قال : إنه (من السهل اعتبار أمريكا التى صنعها الإنسان ... كارثة على مستوى القارة) . لقد ذكـر (أودال) مستمعيه : (إننا نملك أكبر عـدد من السـيارات وأسوأ ساحات الخردة) بالمقارنة لأية دولة أخرى فى العالم نحن أكثر سكان العالم تنقلا ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ونولد أكبر قدر من الطاقة ، وفى أجوائنا أكثر الهـواء تلوثا فى العالم) . ولقد نقل عن رئيس بلدية (كليفلند) قوله مازحاً : (إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل

الذى رفع إنساناً إلى القمر ••• بينما هو غائص إلى ركبتيه فى الأوحال والقاذورات) (١) •

ففى إمكان جامعاتنا أن تركز على التكنولوجيا الزراعية — مثلا — حتى توفر القمح الذى تستطيع به شعوب كثيرة أن ترفع رأسها أمام تحكم القمح الأمريكى فى رقابها ••• وعندنا عدد من مئات الملايين من الأفدنة الزراعية فى العالم الثالث تنتظر منا هذا النوع من التقدم التكنولوجى •

وهناك تكنولوجيا حفر الآبار لإغاثة شعوب تنكب بالجفاف، وهناك تكنولوجيا مكافحة الأمراض المستوطنة والبيئة ، وصناعة وسائل الاتصال برية وجوية وبحرية ••• وتعليب الأسماك (وهو عمل نافع جدا وميسور) (٢) وصناعة الأسلحة التقليدية ••• والغزل والنسيج •••

إن ما تتكلفه بضع عمليات من عمليات زراعة القلب يكفى لتوفير أساليب الحياة لعدد من الملايين فى قارة إفريقيا •••

وإن ما يتكلفه المكوك الفضائى الأمريكى الفاشل (التحدى) — وهو مبلغ مليار ومائتى مليون دولار — يكفى لمنع الجفاف عن إفريقيا كلها إذا ما استثمر فى توفير المياه واستصلاح الأراضى وبناء مساكن للمواطنين هناك •

---

(١) رينيه دوبو : إنسانية الإنسان : تعريب نبيل صبحى : مؤسسة الرسائل الطبعة الأولى ص ٢٢٩ .

(٢) انظر حول تعليب الأسماك : التربية فى اليابان (بو شامب) مكتب التربية العربى لدول الخليج ص ١٢ ، ١٣ .

وبالتالى تستطيع — جامعاتنا الإسلامية — أن تقوم بعملية انتقاء وترشيد تكنولوجيين ، ونمد أيدينا — باسم الإسلام — إلى شعوب كثيرة تعانى من حرب القمح والدولار والتنصير فى جانب ، والتلويح بعدالة اجتماعية مادية وهمية فى جانب آخر ••• وبالإضافة إلى أننا سنقدم تكنولوجيا يقودها الإنسان ، ويمشى فيها الحصان أمام العربة • ويرتفع فيها جسم الإنسان إلى القمر ، وترفع روحه — فى الوقت نفسه — إلى السماء •

الوعى بالذات :

إن من الصعب إبداع حضارة واحدة ذات نسيج واحد بذوات متنافرة لا تجمعها روح منسابة واحدة ••• وإنه مهما اختلفت الإيقاعات فى الحضارة ، فيجب أن يكون الإيقاع الأقوى هو الإيقاع الذاتى الذى يمثل الروح العامة للأمة •

والتاريخ البشرى — على طوله — يتكون من شريحتين : شريحة تميزت وصنعت حضارة نسبت إليها وأخذت بها موقعاً من التاريخ ، وشريحة مرت بالتاريخ ، كما تمر شتى الموجات الساكنة فى الكون ، فهى تابعة لأية ذات ، وهى مؤهلة لعبور قنطرة الحياة تحت أى مظلة وبأى لون ، وهى مطية للزمان والمكان ، يشكلانها كيفما اتفق ، وليس الزمان والمكان مطية لها تشكلهما هى وفق ذاتها ، وبوعيها وإرادتها •••

والموجات الحضارية الكبرى فى التاريخ ، تلك التى لم

يبق صالحاً للرصد والدراسة منها غير عدد محـدود يحصره (أرنولد توينبى) فى إحدى وعشرين حضارة •• هذه الموجات هى ما بقى متميزا وذا ملامح مستقلة فى موكب التاريخ الطويل•

وتحدد الأمـة ــ أية أمة ــ انتماءها لأية شريحـة من الشريحتين منذ البداية ••• أى فى مرحلة التكون والانطلاق •

ولندع الشريحة الثانية التى تمضى بلا معنى فى التاريخ ، فهذه لا تحتاج إلى وقفة ، ومسيرتها شبيهة بكل الكائنات التى تنتمى إلى عالم الغريزة ••• فهى توجه خطواتها إلى الدروب التى تحقق بها غرائزها البطنيـة والجنسـية والفوضـوية والاستعلاء الفردى الكذوب •••

أما الشريحة التى تعنينا فهى شريحة صانعى الحضـارة الذين يتميزون بذات خاصة ، والذين تركـوا بصماتهم على الزمان والمكان ••• هذه الشريحة ــ صانعة الحضارة ــ هى التى انطلقت وفق فقه خاص للحضارة ، واشتبكت مع الزمان والمكان فى معركة إثبات الذات ••• فهى تستثمر كل ثانية من الوقت ، وهى تسخر كل ذرة من الأرض ، وهى تصارع الزمان والمكان بسلاحين قويين : سلاح الروح وسلاح العقـل ••• ولروحها وعقلها فقه معين تجاه الكون والتاريخ الأكبر والمجتمع الأصغر • ولا يعنى هذا أن هـذه الشريحة المسلحة بالـروح والعقل مجردة من الغريزة ••• بل جوهر القضية هو :

فعندما تقود الروح والعقل يفرضان على الغريزة وجوداً موجها منظماً ••• وعندما تقود الغريزة تكسح الروح والعقل من طريقها بأسلوب ثورى عنيف !!

والتحدى الذى يواجه أية مسيرة حضـــارية هو تحديد مسئولية (القيادة لمن) وإزاحة الحواجز التى تحــول دون بروز القيادة المختارة •••

وهنا نجد أنفسنا أمام المسئولية المبــاشرة للجامعــات ومراكز الأبحاث والمساجد والمواقع المختلفة للتأثير من مدارس ومعاهد ووسائل إعلام •••

ويتحدد الإطار الذى يتحرك فيه كل هؤلاء نحو الهــدف الأسمى ، وهو تولية القيادة لصاحبها وفق العناصر الأساسية المكونة (للذات) تلك التى تحددها الأمة من خلال مسيرتها فى الزمان ، ومن خلال القيم الإنسانية والرؤى الكونية المزروعة فى المكــان •••

وبالنســـبة لنا ــ نحن المسلمين ــ فإننا إذا اتجهنا إلى المكان أو الزمان للبحث عن ذاتنا ، فإننا لن نجد إلا الحضارة الإسلامية ، هى التى وضعت بذورنا منذ خمسة عشر قــرنا ، واقتلعت كل الأعشاب الضارة بذورنا منذ خمسة عشر قرنا ، من جديد كل ما كان فيه صالحاً •••

وأذكر أنى كتبت شيئا ما منذ عدد من السنوات نشر فى مجلة سعودية (١) أقول فيه لمن يسألنى عن (عمــرى) : إن عمرى خمسة عشر قرناً ••• إننى أبداً لم أحس وأنا أتعامل مع الحياة أننى ابن أربعين عاماً ••• بل إننى لأشعر بأن شجرتى وشجرة كل مسلم ••• تمتد جذورها فى أعماق مكة والمدينــة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وبجاية والقيروان ••• منذ تلك السنة الفاصلة فى الزمان ••• سنة نزول القرآن ، وبروز المنعطف الجديد فى التاريخ : العصر القرآنى •

إن أركان ذاتنا تحددها هذه القــرون عبر التفاعل الذى تم بين القيم القرآنية والصياغة القرآنية للحياة ، وبين التطبيق البشرى — عبر مراحل تاريخية تواصل فيها التاريخ تواصــل الكائن الحى فى وجداننا ، وعبر أطر جغرافية وبيئية مختلفــة ••• وهكذا فالتاريخ الحى جزء من ذاتنا لا ينفصل عنها •• ونحن امتداد لقيم تاريخية وضعها رجال نحس بقرابة شديدة بيننا وبينهم •

إن العقيدة الإيجابية جزء من ذاتنا ••• فجذورنا تشهد بأن عنصر الإيمان أصيل فى ذاتنا الشرقية الإسلامية (٢) ••• إننا — دائما — فى رؤانا الكونية كنا نتطلق من الإيمــان •••

---

(١) مجلة التضامن الإسلامى (مكة) .

(٢) انظر هذا البحث القيم للدكتور حامد بدر . حول دور الدين الإسلامى فى نظام دوافع وحوافز العمل لأعضاء هيئة التدريس (مجلة العلوم الاجتماعية) العدد ٤ مجلد ١٣ — الكويت .

ولو أننا حافظنا معه على (العقـــل) لكان لمســـارنا التاريخى تطور آخر • وفى تاريخنا كان النصر والهزيمة مرتبطين بالإيمان وعدمه ••• فحالة وجود التوجيه الإيمـــانى الملتحم بالعمـــل والحركة هى حالة النصر ••• وليس عصر النبوة ، ولا عصر الراشدين — فقط — هو ما يعطينا هذا المؤشر •• فظهور كل تيار نصر مرتبط — دوما — بوجود (العزبن عبد الســـلام — أو — المنذر بن سعيد البلوطى — أو عبد الله بن ياســـين — أو أسامة بن المنقذ — أو رجاء بن حيوة — أو أسد بن الفرات (القائد الفقيه) أو ابن تيمية — أو محمد بن عبد الوهاب — أو عبد الحميد بن باديس •••) هؤلاء الذين كانوا يعطـــون لقضية التغيير روحها التى تنتصر بها •

والعقيدة الإيمانية روح تنساب — ويجب أن تنساب — فى كل ما يتصل بذاتنا ، فكراً كان الأمر أو عادات أو تقاليد •• فلسفة أو اجتماعاً أو اقتصاداً ••• شريطة أن يكون الإيمـــان الإيجابى وليس الصوفى السكونى •

والوســـطية والتكاملية بين العناصر يمثـــلان عنصراً — أيضاً — من عناصر ذاتنا ••• فنحن أمة لم تحب الطغيان يوماً ••• لابين المادة أو الروح ، ولا بين المرأة أو الرجل ، ولا بين الفرد والمجتمع • بل من أخص خصائصنا — الذاتية — الرغبة فى تجنب الإفراط والتفريط ، ومحاولة التوفيق بين العناصر •• ولعلنا الأمة الوحيدة التى حافظت على وفاق عجيب بين العلم والإيمان فى تاريخها • ومع تطور العلوم تطوراً مذهلا فإنها لم

تجد نفسها بحاجة إلى فلسفة إلحادية أو مادية للمعاصرة ، بل رأت فى الإيمان أفضل وسيلة للتحديث ولضبط الوسطية فى التجديث نفسه ، ولبقاء التكنولوجيا تحت الهيمنة الإنسانية.

إن لكون (العلماء ورثة الأنبياء) فى حضارتنا معنى عظيما لم نقف عنده .. فهذه التبادلية والتكاملية بين الوحى والعقل هو أمر جديد فى التاريخ ... وهو إحدى هدايا الحضارة الإسلامية للإنسان ، وهو جزء من ذاتنا الإسلامية التى تشعر بتآزر كامل بين الوحى السليم والعقل السليم والفطرة السليمة .

وذاتنا ... ذات منفتحة ... فنحن دائما نقع فى مناطق تشتبك مع حضارات العالم وطرقه الرئيسة ... وديننا (رحمة للعالمين) وللناس كافة ... ونحن فيه مثل كل الناس ..لسنا شعبا مختاراً إلا فىحدود قيامنا بالرسالة والأمانة.. ولو حملها غيرنا لكان أفضل منا (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ... وهكذا فنحن ذات بلا عقد ، وليس لنا قضايا حقد مع العالم ، بل من طبيعتنا التسامح ... وندين العنصرية بكل معانيها الإنسانية والقانونية ...

وبالتالى فليس لنا — كملسمين — فلسفة قومية تجاه الإنسانية ، ولا حتى فلسفة طبقية (بالمعنى الطبقى الجدلى) ... ولسنا نملك قيما تعطينا (استعلاء عنصرياً) ... ومن الغباء أن يحاول بعضهم دعوتنا إلى (الانفتاح — أو الإنسانية — طريقا خادعاً لقتل ذاتنا والذوبان فى الآخرين ... أى

فى الشريحة التى لا معنى لها فى التاريخ إلا المعنى الغريزى .. كلا ... فنحن أمة متميزة ... ولنا ذاتنا التى نؤصلها ... ونوجهها لخدمة الإنسان ودعوته إلى الحق ... وإن كنا — فى نفس الوقت — حريصين على أن لا نذبح (ذاتنا) من أجل ذوات أخرى تموه علينا بكلمات الإنسانية والانفتاح والعالمية ... وهى أشد ما تكون (عبادة) لذاتها ، وقتلا لذوات الآخرين بكل ما تستطيع من أسلحة ، ومن أبرز أسلحتها هذه الدعوة الكاذبة للإنسانية والعالمية — وليست الإنسانية والعالمية فى رأيهم ... إلا (ذاتهم) العنصرية .

* * *

وفى الطريق لتحديد معالم الذات الحضارية للإنسان المسلم قد نجد معالم أخرى .. لكن المهم — هنا — أن تأصيل هذه المعالم وغرسها ، وصياغتها صياغة علمية تاريخية ، والانطلاق منها نحو إقامة منهج حضارى مستقبلى يقوم على كتابنا الكريم وسنة نبينا اللذين آمنا — بحق — بضرورتهما لوجودنا ... هذا التأصيل العلمى (لذاتنا) و (لرسالتنا) هو واجب أساسى من واجبات المؤسسات العلمية العليا ، وهو واحد من أفضل ما يمكن أن تقدمه هذه المؤسسات للشباب ، ولا سيما هذه المرحلة الضبابية من تاريخنا .

التربية ... عقل الحضارة :

إن الارتقاء — بمعناه الجزئى أو المادى — دون اعتماد على التربية والتثقيف هو كبناء جسم الإنسان — دون بناء

عقله ••• ولقد يبدو هذا الإنسان القوى البنية شيئاً عظيما •• لكنه ـــ بدون العقل ـــ لن يخرج عن كونه شـــيئاً ••• وليس إنسانا سويا ، فضلا عن أن يكون إنساناً متحضرا •••

والتربية ليست فى الحقيقة (للعقل) فقط ، بل هى الموجهة (للقلب) أيضاً ، ذلك لأن القلب له فقهه أيضا ، وثمة قلوب ـــ كما يفيدنا القـــرآن ـــ لا تعقـــل : (لهم قلوب لا يفقهـــون بها (١)) •••

وقد وعى خصوم الحضارة الإسلامية خطورة التربية ، (التعليم) (الذى هو جزء مهم فى التربيـــة) ولهذا أنفقـــوا الكثير فى سبيل تغريب التعليم فى بلادنا إما مباشرة أو بواسطة تلامذتهم الذين يتكلمون بألسنتنا لكن عقولهم مكونة غرباً ••• وبينما يعلن تقرير أمريكى رسمى خطير أن (التربية) هى أهم المجالات التى يجب العناية بها ، والتى يجب أن تسبق التصنيع والدفاع بل والصحة (٢) ويعلن التقرير أنه إذا جاءت أمـــة تفرض على أمريكا مناهج غير (أمريكية) لوجب إعلان الحرب فوراً (٣) (مجرد افتراض) ••• بينما يعلن هذا فى أمريكـــا يفرض علينا نحن المسلمين أن تغرس فى أفضـــل المواقـــع فى عواصمنا (الجامعات الأمريكية) ، وتنتشر مئات المدارس التى

---

(١) الأعـــراف ١٧٩ .

(٢) أمة معرضة للخطر ـــ تقرير مقـــدم للجنة الوطنيـــة بأمريكا ١٩٨٣/١٤٠٤هـ مجلة رسالة الخليج العربى عـــدد ١٢ ـــ السنة الرابعة .

(٣) المكـــان الســـابق .

تحمل أسماء (الليسيه والفرير ، والعـذراء ، وفكتـوريا ، والدومينكان ، والإنجيلية ، والقـديس ...) ويهتم بهـذه المدارس ـ شكلا ومضمونا وفق المضمون الغربى ـ فتصبح محاط أنظار كل المثقفين ، لدرجة أن أساتذة عرباً فى الجامعات الخليجية يقبلون بالحياة بعيداً عن أسرهم العام الدراسى كله حتى لا يفقد صغارهم (فى المراحل الابتدائية وغيرها) مقاعدهم فى هذه المدارس التنصيرية (مدارس اللغات) ...

ولقد عجبت إذ رأيت أستاذاً فى سن الشباب يترك أسرته من أجل (ابن وحيد) فى السنة الألى الابتدائية ... ويرفض إلحاق أسرته به ... حتى لا يدخل ابنه مدرسة عربية ، مـع أن البلد العربى الذى يعمل بها تهتم اهتماما كبيرا بالتعليم !!

وثمة آثـار خطـيرة على المستوى الفكرى والسـلوكى والنفسى تتركه هذه المدارس ، مهما أخفت أهدافهـا (١) .. والغريب أن هذا يحدث فى عهود (الاستقلال) بينما كان من الأهداف الأساسية لحركات الاستقلال طـرد لغـة المحتـل الأجنبى المفروضة ، فهاهى تعود ـ بثوب لطيف ـ من الباب الآخر ، وبأيدينا .

وبالإضـافة إلى اللغـة ومدارسها والجامعات الأمريكية

---

(١) ينظر فى هذه الآثـار . د / حسان محمد حسـان : التعليم باللغات الأجنبية فى المدارس الرسـمية العـربية تاريخه ، أسبابه ، آثاره ، نشر القاهرة ١٤٠٠ هـ .

واليسوعية تم غزو أخطر للتربية من خلال العلوم التى تشكل الشخصية الإنسانية والاجتماعية وتعتبر علوماً قيمية ذات معايير عقدية ، وعندما نشأت فى الغرب قامت على أسس ومعايير أخرى لا تتفق فى جملتها مع مجموعة المعايير والقيم التى ينبغى أن تنطلق منها هذه العلوم فى مجتمعنا المسلم (١) .

وقد نظر إلى (التربية) وكأنها علم محايد (كالكيمياء والرياضيات) — إذا صح أن تكون هناك علوم محايدة — مع أنها فى صميم تكوين الشخصية وطابعها الحضارى ورسالتها وذاتها ، وحتى كلمة (التربية الإسلامية) — كعلم — كانت مبعثرة ومغزوة .

ومع التربية غزيت مناهج المواد الاجتماعية والدراسات الإنسانية من تاريخ وحضارة واجتماع وعلم نفس واقتصاد وشوه كل شىء ، حتى (ابن خلدون) الذى تتلمذ الغرب عليه ، تطوع طه حسين بتشويهه ، وشوه أدبنا ونسب إليه الانتحال، وأبعد (الاقتصاد الإسلامى) ورفض فى البداية — كمادة فى الجامعات العربية الإسلامية — (والذى يتبع ماحدث للمناهج الليبية إبان الاحتلال الفاشستى ، وما حدث للمناهج الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسى ، وما حدث للمناهج التركية بعد إعلان العلمانية سنة ١٩٢٣،وما حدث للمناهج الأندونسية إبان سيطرة الشيوعيين وما حدث ويحدث فى المدارس الفلسطينية تحت

---

(١) التعليم مخ الحضارة (مقال . د / سيد دسوقى حسن) مجلة رسالة الخليج العربى عدد ١٥ السنة الخامسة ١٤٠٥هـ .

ضغط الاستيطان الصهيونى ، ... إلـخ . والذى يتبع كـل ذلك يدرك مكامن الخطورة ، ومواطن الدس ، وقنوات السم) .

وهناك تفاصيل كثيرة عن مؤسسات التبشـير والتغريب التعلمية التى أنشئت فى فلسطين والشام بدءاً من دور الحضانة إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت (١) ، والقاهرة واستانبول .. وتفاصيل عن كلية (غوردون) المنشأة بالسودان سنة ١٩٠٢ ، وكلية (ماكريرى) فى يوغندا التى كان يرسل إليها أبناء جنوب السودان خاصة لاستكمال دراستهم وفقاً للأهداف والتوجيهات الإنجليزية (٢) .. وأخرى عن المؤسسات التعلمية الإنجليزية فى عدن منذ دخول الاحتلال البريطانى سنة ١٢٥٦ (١٨٣٩) (٣) وتفاصيل عن مؤسسات تعليمية شيوعية تحمل أسماء واضحة وشعارات مباشرة فى إقليم ظفار بسلطنة عمان ، وفى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وفى منـاطق أخـرى وقعت تحت النفوذ الشيوعى فى الصومال .

ولقد ناقش عدد كبير من مفكرينا المسلمين خطورة التعليم الغربى التغريبى على حياتنا الإسلامية منهم شاعرنا الإسلامى

---

(١) راجع التفاصيل : مصطفى خالدى وعمر فروخ . التبشـير والاستعمار فى البلاد العربية ص ٧٦ .

(٢) راجع ضرار صالح ضرار . تاريخ السودان الحديث . مكتبة الحياة . بيروت ص ٢٤٦ وما بعدها — وانظر : حسان محمد حسان — وسائل مقاومة الغزو الفكرى ٧١ — ٧٢ .

(٣) راجع جاد طه . سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن . دار الفكر العربى . ص ٣٧٥ — ٣٧٦ (نقلا عن وسائل مقاومة الغزو الفكرى) .

الكبير (محمد إقبال) الذى أطلق على هذا النوع من التعليم (حامض التعليم) الذى يحاول إذابة الشخصية الإسلامية ومحو خصائصها الأساسية وتشويه ملامحها ، وتوجيهها وجهة غربية بحتة فى الاتجاه والسلوك والمشاعر • ومن هؤلاء المفكرين مفكرنا الإسلامى المعاصر « أبو الحسن الندوى » فى كثير من كتاباته (١) ومحمد محمد حسين فى كتابيه : (حصوننا مهددة من داخلها ، والاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى) (٢) •

إن الشباب المسلم الذى نشأ فى هذا المناخ ومازال حتى اليوم يعانى منه يشعر بكثير من الازدواجية ، فهذه المناهج والجامعات التى تريد سلخه عن جلده ومسخ شخصيته إنما هى إفراز لشخصية حضارية غريبة عنه ، وتعبير عن قيم لا تمت إليه ••• وعلى الجامعات الإسلامية — وما قبلها من مراحل تعليمية أن تسعى لتطويع العلوم المادية والإنسانية لخدمة الأهداف العليا للمجتمعات الإسلامية ، تلك التى تعبر عن عقيدتها وقيمها ورسالتها الحضارية •••

وهذه الأهداف العليا يقع على الجامعات عبء كبير فى تحديدها وصياغتها صياغة علمية •

---

(١) راجع التفاصيل : أبو الحسن الندوى ، نحو التربية الإسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الإسلامية . المختار الإسلامى القاهرة .

(٢) راجع وسائل مقاومة الغزو الفكرى — د./ حسان محمد حسان طبع الرابطة ص ٧١ ، ٧٢ — مكة المكرمة ١٤٠١هـ .

كما يقع عليها عبء صياغة القيم السائدة المعبرة عن طابعها الحضارى .

وعليها أن تكون الإطارات القادرة على تحقيق هذه الأهداف وغرس هذه القيم ، إذا أن دور الجامعات يأتى فى المقدمة من حيث إعداد الطاقات البشرية المهنية والقادرة على المساهمة فى نقل هذا المجتمع من مجتمع آخذ فى النمو إلى مجتمع متطور خلال فترة زمنية طموحة ، على أن تتم عملية الانتقال تلك مع عدم المساس بكافة المقومات والقيم الصالحة للمجتمع ، مع الاستفادة القصوى من الموارد المتاحة بكافة قيم ومقومات الحياة وأهمها الإنسان .

والإنسان هو محور الحديث المتصل عن الإنتاجية ، لأنه مركز الثقل فى عملياتها ، فمنه تنبع ، وإليه تتجه ، وهو فى ذات الوقت الوسيلة إليها ، لأن به تتحقق المعدلات المرتفعة لها ، وتنمية الطاقة البشرية هى مهمة أساسية من مهام مؤسسات التعليم العالى ، وتقف على قائمة أولويات المجتمع الذى يعانى من قلة السكان ، وندرة القادرين من المواطنين على المساهمة فى برامج التنمية (١) .

ومن الجدير بالذكر أنه فى ظل المفهوم الشامل للتنمية ، وذلك الذى يجمع بين التنمية الثقافية والاقتصادية والأخلاقية

---

(١) إنتاجية مجتمع — د / محمد محمود سفر — الطبعة الأولى — ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م — جدة — السعودية ص ١٥٦ .

فى نسيج واحد — يبدو دور الجامعات فى التنمية الموصلة إلى الأهداف العليا دوراً رائداً ، ليس باعتبارها التى تصنع الإنسان فحسب ، بل باعتبارها المؤسسات القادرة على التعبير الاجتماعى والثقافى النمطى الذى ينسجم مع شخصية المجتمع وذاتيته الحضارية •

وتستطيع الجامعات — فى ضوء هذه الإمكانية — أن تعالج الأمراض الحضارية الخطيرة فى الأجيال الشابة ، وعلى رأسها (القابلية للاستعمار) و (الفراغ العقدى) و (اللاانتماء) و (اللامسئولية) والاستعداد لتقبل (الازدواجية) فى الحياة، أى التعامل بالشخصية المزدوجة غير السوية ، والتخلف الفكرى ، والأمية الثقافية التى يتمتع بها قطاع كبير من حملة المؤهلات العليا •

وإذا كان هدف المجتمع — أى مجتمع — الوصول بأفراده إلى إنتاجية أكبر يصبح لزاما أن يختار المجتمع لكل فرد فيه النوعية المناسبة من التعليم والتدريب خلال مدة محددة ليؤدى الفرد بعدها مهمة بعينها فى خريطة المهام الوطنية للمجتمع ، وحسب قائمة أولويات محددة سلفا بحيث يستنفر كل عضو فى المجتمع ليقوم على ثغرة من الثغرات ، إما باعتباره فرض عين أو فرض كفاية ، وذلك من خلال تحديد واضح للأهداف العليا للمجتمع •

نحن لا ننكر أن ذلك بالطبع أمر بالغ الصعوبة ، وتختلف

النظم فى محاولتها القرب من الغاية ، ففى بلد كأمريكا تعطى للطالب حرية الحركة فى المدرسة والجامعة والمجتمع ليكتشف نفسه ، ويحدد قدراته ، ويصحح خطوه .

أما فى بلدان العالم الإسلامى فحرية الحركة الاستيعابية للطالب داخل النظام التعليمى تكاد تكون معدومة ، والأجهزة التعليمية غير قادرة (إما لثقل حملها ، أو لعدم اكتمالها) على الاكتشاف المستمر للقدرات المختلفة عند الطالب ، وحتى لو اكتشفت قدراته فإن تحقيق المسارات المختلفة للقدرات المختلفة أمر ليس فى قائمة أولويات النظم التعلمية فى بلدان العالم النامى ، بل إنه فى أحيان كثيرة يؤدى الهيكل الوظيفى فى المجتمع إلى اختيار خاطىء من الطالب لنوع من التعليم أو التدريب بحيث يملى هذا الهيكل ضغوطا اجتماعية تجعل مساراً بعنيه أكثر بريقاً وأشد جذبا (١) .

وهذا ما وقع للتعليم الجامعى — فعلا — فى كثير من بلداننا الإسلامية بحيث وجدنا كثافة لا لزوم لها فى بعض التخصصات ، وبالتالى فائضاً كبيراً ... بينما وجدنا عجزا فى كثير من التخصصات حتى فى داخل الكلية الواحدة لم يكن التقسيم بين التخصصات متوازنا ومرتبطا بحاجات المجتمع التى توضحها خطة مستقبلية . وقد كان لهذا المسلك تأثيره المدمر على الشباب ، إذ ظهرت لديهم البطالة المقنعة وأحسوا بأنهم عبء على حاضر أمتهم ومستقبلها ، وألفوا الكسل وعدم

---

(١) إنتاجية مجتمع د / محمود محمد سفر ط ١ ص ١٥٩ (بتصرف) .

الاهتمام بقيمة العمل ، بل فقدوا تقديرهم لقيمتهم الإنسانية ••• فضلا عن وجود تخصصات كثيرة تعانى من نقص كبير ••

وثمة مشكلات أخرى تتصل بالتربية وتحتاج إلى جهد كبير من الجامعات لما لها من صلة بالشخصية الحضارية للأمة ••• وللأسف الشديد ، فلا يكاد يهتم بها إلا عدد قليل من الجامعات فى العالم الإسلامى ، وإلا بعض الغيورين الذين يعملون بجهود فردية ومحدودة ••• وهذه المشكلة هى ما يعرف بازدواجية التعليم فى عالمنا العربى والإسلامى ، حيث نجد على امتداد الجامعات نمطين متناقضين :

أحدهما يجهل قدر العلوم الإنسانية كالاجتماع والاقتصاد والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والتربية ، مع ما أثبتته هذه العلوم من قدرة تنظيرية فى مجال تقدم الغرب ووعيه بذاته •

وثانيهما يتبع التحليل الغربى فى رؤيته لهذه العلوم (١) حتى أصبح التصور الكونى والنفسى والأخلاقى والاجتماعى الذى تطرحه هذه الأفكار حرباً على دين الأمة ورؤيتها الإيمانية للكون وماوراء الكون •

وفى مرحلة (النضج) الذى اصطلحنا على تسميته

---

(١) انظر فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : كارم غنيم (نقد كتاب) المسلم المعاصر ٤٣/١١ .

(بالصحوة) أو بداية الثقة فى أنفسنا وفقهنا لأبجديات التحضر ••• فى هذه المرحلة يجب تصحيح موقفنا من هذه العلوم •• ولن يتأتى ذلك إلا بمزج هذه العلوم بعلوم الإسلام ونظـرة الإسلام ، فهما — فى الحقيقة — كيان واحد ••• وليس هناك فى الحقيقة شيء اسمه •••فقه •• وآخر اسمه اقتصاد واجتماع ••• فالثلاثة كيان واحد ••• والأخلاق وعلم النفس والتربية منظومة واحدة يجب أن تنبع من التصور الإسـلامى شريعة وأخلاقاً ، والفلسفة يجب أن تشرق من شمس العقيدة والوحى، وإلا أصبحت تجريداً وهمياً وجدلا عقيماً يستطيعه كل إنسان بلا ضوابط أو ركائز •

وهكذا فأسلمة المعرفة مطلب وجـودى •• ولا بد من سد الفجوة الملحوظة بين التخصصات الإسلامية والتخصصات الأخرى وإلغاء الحواجز بينها بحيث يتم أسلمة التخصصات الأخرى بأن تنبع من مفاهيم إسـلامية ، وفى الوقت نفسـه الاعتراف بالتخصصات العلمية ومناهجها ، كالطب والهندسة ، والصيدلة ، والزراعة والعلوم •• الـخ ، وقبولها وتطويرها إلى أحدث ما تصل إليه من منابعها فى حضارتنا ومن تطورها فى الغرب ، مع التأكيد على المحافظة على الشخصية للطـالب الدارس لها ليتمكن من ممارسة مهنته بعد تخرجه إنسانا مسلماً قبلأن يكون متخصصا فينطلق فى ممارسته من تصورات إسلامية واضحة فى التعامل مع الآخرين حتى يمكن أن يتميز عن صنوانه من غير المسلمين أخلاقيا وسلوكيا ••• وهكذا فلن نصـل إلى

منظور حضارى سليم دون (أسلمة المعرفة) وأسلمة عقــول الباحثين عن المعرفة (١) •

إن التربية الغربية تقوم فلسفتها ــ بصفة عامة ــ على عدد من الكليات التى تتناقض تماماً مع فلسفتنا وحضارتنا •• ومن هذه الكليات : فكرة التطور فى كل شىء حتى فى الإنسان والقيم ، وفكرة البقاء للأقوى ، وفكرة صراع الطبقات ، وفكرة (فرويد) فى الدافع الجنسى وراء حركة الإنســـان ، وفكـــرة النسبية وإنكار كل مطلق ، وفكرة الوضعيه ، وأن المعرفة الحقة لا تقوم إلا على المشاهدة وحدها (٢) •

فكيف نأخذ مناهج هى ثمار هذه البذور التى تتناقض تماما مع كلياتنا الفلسفية التى تؤمن بوجود عناصر ثابتة فى الإنسان والقيم ، وترى أن البقاء للأصلح (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) وتؤمن بتعاون الطبقات لا بصراعها ، وتــرى أن الدافع الإنسانى يخضع لمحرك الإيمان ــ بالدرجة الأولى ــ ولاعتبارات أخرى مكملة له ــ ومنها الجنس والاقتصـــاد ، وترى أن (عالم الغيب) ــ والمعقولات ــ أساسيات فى نظرية المعرفة الحقة •

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن التعليم الجامعى يحتوى على عنصرين متكاملين : الجوهر الثقافى ، والإعداد التخصص •

---

(١) انظر إنتاجية مجتمع . الدكتور محمود محمد سفر . الطبعة الأولى ١٩٨٤م . السعودية . ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) د/سيد دسوقى حسن : مرجع سابق .

فأما الجوهر الثقافى فله أبعاد علمية وأبعاد تربوية وأبعاد حضارية ، وأما الإعداد التخصصى فله أبعاد تحليلية وأبعاد تصميمية وأبعاد تقنية (١) .

أليس من الأجدى أن تنطلق مناهجنا وجوهر ثقافتنا من تصوراتنا الكلية ؟ وأليس من الأجدى أن لا تبدد طاقات جامعاتنا التطبيقية فى (البعد التحليلى) « وبدرجة ما البعد التصميمى » على حساب عملية التقنية ؟

الحقيقة أننا بحاجة إلى إعادة نظر فى النسبة بين البعد التحليلى والبعد التصميمى والبعد التقنى فى ضوء الحاجة الاجتماعية (٢) .

ونحن — أيضا — فى حاجة إلى إعادة نظر مستبصرة فى ضوء البعد الاجتماعى — وكلياتنا الحضارية — لكل مناهجنا فى الجامعات والتعليم عموما .

وعندما نقوم بهذين المطلبين الجوهريين فسوف ينتهى عصر التيه والتمزق فى شبابنا المثقف وسوف يجد شبابنا طريقه معبداً نحو الانطلاق والإبداع ، شريطة أن يقف ذلك فوق أرضية السنة — نموذجنا الحضارى — وفى إطار بعث الذات المسلمة الواعية بإطارها الحضارى ومهمتها التاريخية .

(والله ولى التوفيق)

---

(١) د / سيد دسوقى حسن : مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق .

الفصـــل الرابـــع

الغزو الثقافى الحديث فى المجال التاريخى

ودوره فى أزمتنـــا الحضــــارية

أسباب الغزو الثقافى فى تاريخنا :

كثيرة هى الغارات التى شنت ــ ولا تزال ــ على تاريخنا الإسلامى وقديمة ــ أيضا ــ هى هــذه الغارات وموصــولة تتدافع حلقاتها فى سلسلة يأخذ بعضها فى خنــاق بعض ... وتعود هذه الغارات قديمها وحديثها لأخطاء أساسية ...

أخطــاء تتصل بســيطرة (المــذهب) على (المنهــج) و (الولاء المسبق) على (الحقيقة الموضوعية) ...

وأخطاء تتصل (بمخططات موصولة) تهدف إلى القضاء على عظمة تاريخ هذا الدين وعظمة حضارته .

وأخطاء تتصل (بأحقاد موروثة) نشــأت منذ ظهــر الإسلام على هذه الأرض واستطاع ببساطته وملاءمته للفطرة ووضوح حقائقه العقدية والتشريعية والأخروية أن يغير مجرى التاريخ وأن يعيد رسم خريطة العالم ، وأن يتســنم ذروة الحضارة ولقد قام تاريخ هذا الإسلام وقامت حضارته فوق الساحة نفسها التى كانت لعقائد أخرى ــ بطبيعة الحــال ــ فكان هذا مبعث أحقاد لدى أصحاب هذه العقائد .

وأخطاء تتصل بأسباب أخرى كثيرة لكنها ــ فى معظمها ــ تلتقى عند نقطة (الصراع الحضارى) الذى يعنى (تشويه)

تاريخ هذه الأمة والانتقاص من قدر تجربتها فى التاريخ ودورها فى الحضارة ويعنى ــ أيضا ــ طمس (العوامل) التى جعلت هذه الأمة تثب هذه الوثبة العظمى فى التاريخ ... حتى أصبحت مكتبة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر تضم أربعمائة ألف مجلد بينما كانت أكبر كنيسة فى أوربا ــ أو مكتبة عامة ــ لا يزيد ما تمتلكه من الكتب عن (١٩٢) كتابا .

فكيف حدث هذا القفز الحضارى الهائل ؟

وكيف استطاع جيل الصحابة الذى نشأ فى صحراء العرب الوثنية بصفة عامة أن يصنع هذا التحول الحضارى الخطير الذى لم يتكرر فى التاريخ ؟ !

لقد كانت أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام من معجزات التاريخ والعمل الذى عمله أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمة الرومان ولا أمة اليونان قبلها ولا أمة من الأمم بعدها .. أما جيل الصحابة ــ فإنهم جميعا كانوا شموسا طلعت فى سماء الإنسانية مرة ولا تطمع الإنسانية بأن تطلع فى سمائها شمس من طرازهم مرة أخرى (١) .

إن تلك المعجزات التى صنعها (القرآن) و (التربية المحمدية) لحرية ــ فى نظر أعداء الإسلام ــ بحرب دائمة لمحو إشعاعاتها ، ولصرف المسلمين عن التعلق بها والدوران

(١) العواصم من القواصم المقدمة بقلم العلامة محب الدين الخطيب .

فى فلكها ، وعن الاعتقاد بأن آخرهم لن يصلح إلا بما صلح به أولهم .

إن نماذج أبى بكر وعمر وعثمان وخالد والزبير وطلحة وعمرو بن العاص — وهلم جرا — يجب أن تفسر مواقفهما تفسيرا يجعل وراء ظاهرها باطنا سيئا يجردها من عنصر (الإخلاص) ويجب أن تكون فترة (السيرة) كلها بدءاً من صاحب الرسالة العظمى — عليه الصلاة والسلام — هدفا رئيسيا للشبهات والطعنات والتماس التبريرات المغلوطة لكل مواقف اجتهادية .

وبعد الراشدين يأتى الأمويون الذين تلقفوا الراية ، وساحوا بها فى الأرض فاتجهوا غربا حيث أتموا فتح المغرب (٨٦هـ) الذى كان قد توقف بعد معركة ذات الصوارى (٣٥هـ) وفتحوا الأندلس (٩٢هـ) واتجهوا شرقا ففتحوا ما وراء النهر بقيادة المهلب بن أبى صفرة ومحمد بن القاسم الثقفى ومسلمة بن عبد الملك ...

وكما لم تنج المسيرة والعصر الراشدى من ترصد هؤلاء وكما لم ينج الأمويون — من باب أولى — فقد نالت سهام هؤلاء العباسيين وكانت السهام الموجهة إليهم أكثر ... ، لأن عمرهم قد امتد ، وخلفاءهم كانوا كثرا .. وبالتالى فإمكانية التصيد والتشويه تمتد إلى أطول مساحة ممكنة !! .

وهكذا تتوالى الحلقات ، بحيث يراد لأمتنا أن تنتهى إلى

الاقتناع بأن تاريخها وحضارتها لا يستحقان منها كل هذا الولاء ، وبأن الانتماء إلى غيرها لن يؤدى إلى خسارة كبيرة بل ربما يؤدى إلى بعض مكاسب (الحداثة) و (المعاصرة) !! .

المنهج المنحرف فى معالجة تاريخنا :

والغريب أن هؤلاء يضعون لتشريح تاريخنا (منهجا خاصا) — وصولا إلى إدانته — فبينما يعالجون تاريهم ، وتاريخ كل الأمم الأخرى بمقياس قريب من (الواقعية) و (الموضوعية) لدرجة أنهم تواضعوا على التفرقة بين الالتزام العام والحياة الشخصية فإنهم يعمدون إلى محاكمة تاريخنا وكأنه تاريخ ملائكة ليسوا من البشر ، إنهم يريدون منهم أن لا يختلفوا فى الرأى ولا يجتهدوا فى الوصول إلى ما يؤمن كل منهم أنه الحق ... إنهم يريدونهم قوالب مصبوبة فى قالب واحد دون أدنى تعبير عن العقل الخاص والرؤية الخاصة .

والحقيقة أننا نحن المسلمين ساعدنا على شيوع هذا المنهج .. فقد تحدث كثير منا عن هذا التاريخ بطريقة أسطورية فبدا هذا التاريخ وكأن الذين عاشوه يجب أن لا تكون لهم أية اجتهادات مرجوحة ، بل كلهم يجب أن تكون كل اجتهاداتهم راجحة — وهو أمر لا يستقيم ومنطق الحياة — ولقد صرفنا هذا المنهج عن التحليل الموضوعى الكريم فى إطار الأدب الإسلامى الذى علمنا إياه نبينا عليه الصلاة والسلام .

وقد أدى هذا إلى موقفين :

موقف قبول كامل لهذا التاريخ دون الاستفادة من بعض الجـوانب السـلبية البشرية التى هى ضرورة فى الاجتمـاع البشرى ..

وموقف آخر تمثل فى رد فعل يذهب إلى رفض هـذا التاريخ مستجيبا إلى أية دراسات تتلفع برداء العلمية والعملية فى تحليل التاريخ ، وتعمد إلى بث الشبهات والافتراءات .. وتضخم الاجتهادات البشرية المخلصة فتحولها إلى أخطـاء وكبـائر .. !!

وأيا كان الأمر ـ فقد كان هذا الموقف ـ من الأعـداء والبسطاء مظهرا من مظاهر المنهج المنحرف فى معالجة تاريخنا ، وهو مظهر سار فى تاريخنا كله حتى اليوم .. فنحن لا زلنا ننظر إلى مصلحينا وأئمتنا فى العصر الحديث بالمنظار نفسه .. فجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ـ مثلا ـ يتواطأ كثيرون على إدانتهما وقد بذل أحدهم عمره ـ عن حسن قصد ـ وهو الدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه الله ـ فى ترصد حياتهما وتأويلها ـ دائما ـ لغير صالحهما ... وكان على رأيه آخرون مـن المفكرين ، ومنهم : الدكتـور على سـامى النشـار ، والأستاذ محمد عطية خميس المحامى ـ رحمهما الله ـ ولا زال على هذا الرأى كثـيرون فى الجزيرة العـربية ومصر حتى اليـوم !!

وقد التقى مع هذا الرأى (واستثمر الكتابات الإسلامية فيه) الدكتور لويس عوض الذى يمثل قلعة من قلاع الصليبية

فى مصر ... والرجل الذى يرفض ما هو إسلامى وعربى .. ويحارب على صفحات صحفنا المصرية والعربية فى سبيل هدفه ، ويأخذ من أموالنا مكافآت سخية كفاء عمله الآثم ، وهكذا التقى البسطاء مع الأعداء ... فى نموذج حديث .

وفى المقابل وجد آخرون لا يسمحون بتشريح حياة الأفغانى ومحمد عبده بالمبضع البشرى الذى يرصد الحسنات والسيئات ويوضح الظروف المحيطة بالاجتهادات الخاطئة !!

وإذا ما تركنا هذا المظهر من مظاهر الانحراف ، فإننا نجد مظاهر أخرى ساعدت على الانحراف عن المنهج الصحيح فى معالجة تاريخنا .

ومن هذه المظاهر الاختلاف الأساسى فى النظرة إلى الإنسان ومقوماته بين المسلمين وغير المسلمين .. فغير المسلمين قد ألفوا النظر إلى الإنسان وحركته وحروبه وتضحياته وإقامته للمذاهب والدول بمنظار مادى بحت ، انطلاقا من تركيزهم على الجانب المادى فى الحياة واستهانتهم بالجانب الروحى والأخلاقى فيه ، ولهذا فهم يفسرون حركة الحياة بالعامل الواحد المادى أو الاقتصادى ويكادون يغفلون دور العناصر الأخرى . وبعضهم يدين « شبنجلر » و « توينبى » لاعتمادهما نزعة غيبية فى تفسير التاريخ ولا يتصور هؤلاء كيف أن أبا بكر يتبرع بكل ماله وكيف أن صهيبا ترك لأهل مكة كل ثروته وقال له الرسول : (ربح البيع) .. فهم من

عالم آخر بعيد لا يستطيعون منه أن يدركوا هـذا المستوى الغريب ، وهم لذلك يلتمسون كل ما يظنونه يخدمهم لتغيير حركة الفتوحات الإسلامية تغيرات مادية أو اقتصادية بل إنهم أرادوا لظهور الإسلام نفسه أن يكون قد ظهر لعوامل اقتصادية أو لإنصاف بعض الطبقات !!

هذه الاستجابة الناقصة هى أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية ذلك أن هناك عنصرا ينقص الطبيعة الغربية — بصفة عامة — لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية على وجه الخصوص ... عنصر الروحية الغيبية وبخاصة فى العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية والطريقة التجريبية على وجه أخص ، وكل ما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر فى العقلية الغربية الحديثة (١) .

وبالإضافة إلى هذا فقد درج أكثر المستشرقين الباحثين فى التاريخ الإسلامى على الخضوع لميزان الهوى ، واللجوء إلى كتابات من سبقوهم من المستشرقين وكأنها (المصادر الأصلية) والاعتماد على الأفكار الكنسية عن الإسلام ، تلك التى سيطرت على الفكر الغربى فى العصر الوسيط والحديث وأكثرهم يعمل فى دائرة مهمتها الحرب على الإسلام والمسلمين

(١) الشهيد سيد قطب : فى التاريخ فكرة ومنهاج ص ١٦١ دار الشروق .

ويقومون بأبحاث موجهة أصلا لتحقيق أهداف هذه الدائرة ، وبالتالى فهم يضعون فى أذهانهم فكرة معينة ويبدأون فى تصيد الأدلة لإثباتها ، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية ، وكثيرا ما يستنبطون الأمر الكلى من حادثة جزئية أو أنهم يدخلون بشخصياتهم وآرائهم وأهوائهم الخاصة فيفسرون الحوادث ويناقشون النصوص ، ويحللون القضايا والشخصيات الإسلامية على ضوء وجهة نظرهم،ويطلون من نافذتهم الخاصة فيلقون ظلالا معينة تغير معالم الصورة الأصلية . ومن هنا يضربون فى متاهات أملاها عليهم الهوى والغرض رغم ما توفر لهم من الإمكانات العلمية بالحصول على المخطوطات الثمينة من تراث الإسلام ، التى كان من شأنها أن تهديهم إلى الفكرة السليمة عن الإسلام والمسلمين (١) .

ويشير الدكتور « جواد على » إلى أن المستشرق كيتانى كان يعتمد منهجا معكوسا فى البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد فى حقل التاريخ الإسلامى والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه إذ يتبنون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى واقع التاريخ لكى يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك ، فلقد كان « كيتانى » ذا رأى وفكرة ، وصنع رأيه وكونه مما فى السيرة قبل الشروع فى تدوينها فلماشرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ضعيفها وقويها ، وتمسك بها كلها

(١) عماد الدين خليل : دراسات تاريخية ص ١٦١ نشر المكتبة الإسلامية .

ولا سيما ما يلائم رأيه ، ولم يبادر بالخبر الضعيف بل قوآه وسنده وعده حجة ، وبنى حكمه عليه • ومن يدرى فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ولكنه عفا عنها وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها ، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت ، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إن ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث (١) •

وترد فى ختام كتاب ايتين دينيه (الشرق كما يراه الغرب) بعض الآراء حول هذا المنهج حيث يقول :

لقد أصاب الدكتور سنوك هيرغرنجة بقوله (إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق) •

ويعقب صديقنا الدكتور عماد الدين خليل على هذا الاتجاه الملحوظ فى الفكر الاستشراقى بقوله : ونحن نستطيع أن نحصل على عشرات بل مئات من هذا (الانتقاء الكيفى) أو التفسير الاختيارى للنصوص التاريخية فى كثير من كتب المستشرقين وبخاصة أجيالهم السابقة ، فبروكلمان على سبيل المثال لا يشير إلى دور اليهود فى تأليب الأحزاب على المدينة ولا إلى نقض بنى قريظة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى أشد ساعات محنته ، ولكنه يقول (ثم هاجم المسلمون

(٢) عبد الكريم باز : افتراءات فليب حتى وكارل بروكلمان ص ٢٥ نشر دار تهامة — السعودية •

بنى قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال ويتغاضى عن حادثة « نعيم ابن مسعود » فى معركة الخنـدق كسـبب انعدام الثقة بين المشركين واليهود ، ولعله يريد أن يوحى بذلك إلى أن اليهود لا يمكن أن يخدعوا !!

ومثل هؤلاء — أيضا وأولئك الذين يسقطون على التاريخ الإسلامى أهواءهم المذهبية فهم منطلقون — أيضـا — مـن خلفية فكرية قهرية معتسفة تلوى عنق الحقائق كرها حتى تصبح هذه الحقائق خادمة فى بلاط (الاشتراكية) مرة و (الليبراليه) مرة أخرى ويصبح عمر وأبو ذر يساريين وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف يمينيين إقطاعيين ويصـبح هناك صراع بين اليمين واليسار فى الإسلام (١) وقد لجأوا — فى سبيل تكييف الوقائع حسب أهوائهم — إلى الاعتماد على الآراء والتحليلات الضعيفة وعمقوها وجعلوها هى الحق ، وسواها باطل كما رجحوا آراء المارقين والمنحرفين واعتبروهم الفلاسـفة والمفكـرين الممثلين للإسلام ، وفى مجال التاريخ رجحوا آراء أصحاب الوفـد الباطنية وأصحاب النزعات الفوضوية والإلحـادية وجعلوهم (المعارضة الفورية) لسيادة التيار الإسلامى المحافظ والممثلة للشعب المسلم .

ومن مظاهر المنهج المنحرف الذى يلتزم به أقطاب الغزو الثقافى لتاريخنا ما يعمد إليه أكثر المستشرقين مـن إسـقاط المنطق الوصفى العلمانى ، والرؤية البيئية المعاصرة للمناهج

(١) مقالات لكاتب شيوعى يدعى أحمد عباس صالح نشرت بمجلة الكاتب تحت هذا العنوان .

الغربية على الوقائع والأحداث الإسلامية الماضية فلقد رأى المستشرق المسلم دينه ــ على سبيل المثال ــ أنه من المتعذر إن لم يكن من المستحيل ، أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة وإنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبى والصحابة مبلغا يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمى الجاد فإنا نلمس من خلال كتاباتهم أن محمدا يتحدث بلهجة ألمانية ، إذا كان المؤلف ألمانيا ، وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، وإذا بحثنا فى هذه السير عن الصورة الصحيحة فإنا لا نكاد نجدلها من أثر . إن المستشرقين يقدمون لنا صورا خيالية هى أبعد ما تكون عن الحقيقة وهكذا تتعالى (المظاهر) التى أدت إلى انحراف المنهج لدى طبقات كثيرة ، من هؤلاء الذين يشتغلون بمعالجة قضايا تاريخنا الإسلامى وحضارتنا الإسلامية ...

وكلها مظاهر منبعها الجهل فى الأقل ، والحقد فى الأكثر والبعد عن المنهج العلمى السليم فى كلا الحالين .

تاريخنا والغزو التنصيرى والعلمانى :

دأبت الدوائر الكنيسية والغربية بصفة عامة على الاشتغال بتاريخنا وحضارتنا بطريقة مكثفة .. ولو حصرنا عدد المشتغلين بالتاريخ الإسلامى وتراث الإسلام من هؤلاء

لوجدناهم أعداداً غفيرة وقد تتلمذ على أيديهم مـن المسلمين كثيرون ، كما تتلمذ على أيديهم بعض النصارى العرب الذين خانوا حضارتهم العربية والإسلامية ، ولم يكن فى مسـتوى النضج الحضارى الذى مثله الشاعر اللبنانى (بشارة الخورى) أو السياسى الوطنى المصرى (مكرم عبيد) الذى كان يقـول (أنا مسلم وطنا مسيحى دينا) ... وكان من أسـوأ هؤلاء وأجرأهم على الدعوة للتغريب والتنصير الكاتب سلامة موسى والمؤرخان جورجى زيدان وفيليب حتى ثم تلميذهما (لويس عوض) !!

وقد تعاون المستشرقون والمستغربون معا على تشـويه تاريخنا ، ولهم فى ذلك خطوط فكرية ثابتة ... نستطيع أن نلم بأهمها على النحو التالى :

١ ــ التركيز على فترات الخلاف بين المسلمين وتوسيع دائرة الحديث عنها ، والإغضاء ــ بالتالى ــ عن المسـاحات الأخرى الكبيرة المتألقة .

٢ ــ القول بأن فترة الالتزام بالإسلام لا تعدو أن تكون فترة العصر الراشـد .

٣ ــ إثـارة العنصريات وتعميقهـا بين العـرب والبربر والأتراك والفرس بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامى بين المسلمين ، وهم يتذرعون لذلك بإحياء النزعات والخلافات بين هذه العناصر الإسلامية .

٤ ـ محاولة إبراز كلمات (العروبـة) و (العـرب) و (الفكر العربى) و (الحضـارة العربيـة) بغرض إثـارة الشعوب الأخرى التى ساهمت فى صنع الحضارة الإسلاميـة وتأليبها ضد العرب .

٥ ـ إبراز دور الأقليات غير المسلمة وتحريكها ضـد الأمة ... والزعم بأنها أقلية ظلمت وانتهكت حقوقها .

٦ ـ كراهية كل الدول والجماعات التى أنقذت المسلمين ووقفت ضد الزحف الصليبى مثل المماليك والأيوبيين والعثمانيين ويفوز العثمانيون بالنصيب الأوفر من حقد هؤلاء لاعتبارات كثيرة .

٧ ـ محاولة إرجاع ما يوجد من صور النهضة فى الحياة الإسلامية إلى الاحتلال الأوروبى ، مثل الحملة الفرنسية على مصر ، وبعثات محمد على إلى أوربا .

٨ ـ تمجيد كل الذين خانوا الإسلام وحاربوه مثـل مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا وأكبر شاه فى الهند وغيرهما .. وفى المقابل الانتقاص من قدر المجـاهدين والمصلحين وتلفيق التهم ضدهم .

٩ ـ التشكيك فى التراث الحضارى للمسلمين بدعوى أن الحضارة الإسـلامية منقولة عن الحضـارة الهيلينية ، وأن

المسلمين ـ بالتالى ـ لم يكونوا إلا نقلة ومترجمين لفلسفة تلك الحضارة ، ولم يكن لهم إبداع فكرى ولا ابتكار حضارى (١).

١٠ ـ تشويه منصب الخلافة الإسلامية ورميه بأبشع الصفات وإعلان حرب دائمة عليه حتى بعد زواله ... وأليس عجبا أن تكون اتفاقية « كرزون » المبرمة ضمن مؤتمر لوزان (٢٤ يوليو ١٩٢٤) متضمنة فى بندها الأول : (إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا من تركيا) وفى بندها الثانى أن تقطع تركيا كل الصلة بالإسلام !! أليس هذا التدخل فى الشؤون الداخلية شيئا سافرا لعداء لا يشبه إلا تدخل أمريكا أمام أعيننا فى شؤون بلد عربى وإرغامه على إلغاء تطبيق الشريعة ... وتهديد الآخرين الذين يفكرون فى السير فى هذا الطريق .

١١ ـ تشويه تاريخنا الحديث بطريقة مزرية ، وقد ذكرنا أن الدولة العثمانية باعتبارها البلد الذى قام بالدور الأساسى فى حماية المسلمين فى القرون الخمسة الأخيرة قد فازت بأكبر نصيب من هذا الهجوم التنصيرى .

وقد وصل الأمر بهذا الغزو الثقافى المشين أن اعتبر الوجود الإسلامى التركى الذى حمى الشاطىء المغربى كله ، وضد الغزو الأسبانى الزاحف بعد سقوط غرناطة ، وادخل الرعب فى قلوب الأوروبيين وجعلهم يقفون فى موقف الدفاع الأربعة قرون ...

---

(١) عبد الكريم على باز : افتراءات فيليب حتى وبروكلمان .

أقول لقد اعتبر هؤلاء المنقذين الأتراك (اســـتعمارا) واحتلالا واعتبروا الحركات العلمية للصليبية الدولية ومحافل الماسونية التى باعت فلسطين ــ حركات تحريرية ثورية !!

واعتبار الأتراك مستعمرين أمر ترفضه طبيعة الأخـــوة الإسلامية ولئن كان بعض الولاة الأتراك قد أخطأوا فى حق العرب ••• فإن كثيرا من (الحكام العرب) الذين حكموا بعد الترك قد أجرموا فى حق شعوبهم ••• وقد كان الولاة الأتراك فى جملتهم أفضل كثيرا من الذين حكمونا فى عصور استقلالنا العظيم (!!) ومع ذلك ــ وبالإضافة إلى الأخوة الإسلامية ــ فنحن نتساءل :

هل كانت تركيا دولة استعمارية ؟

ولكى نجيب ــ علميا على هذا السؤال لا بد لنا من أن نتفق على معنى (استعمار) ••• الاستعمار ــ تاريخيــا ــ حالة معينة من التطور الاقتصادى ••• تقف فى قمة التطـــور الرأس مالى ••• فهل كانت الدولة العثمانية واقفة فى هـــذه القمة ؟ بالطبع لا •• لقد كانت أفقر من بعض البلاد التى يقال إنها خاضعة لها ، والعلاقة الرسمية الوحيدة التى كانت تربط مصر ــ مثلا ــ بتركيا هى الخطبة للسلطان ، وحق السلطان فى تعيين الوالى •• الوالى الذى لا يملك من الأمـــر شـــيئا ، والذى كان المماليك والعلماء ــ بل والعامة ــ يملكون عزله فى أى وقت ، ودون إبداء الأسباب •

وقبل الغزوة الفرنسية استقل مملوك فعلا بمصر — (على بك الكبير) ولولا خيانة زوج ابنته له لما استطاع العثمانيون مواجهته ... بل إن المماليك ظنوا أن الغزوة الفرنسية كانت بتدبير من السلطان العثمانى ، وواجهوا مندوبه البائس فى مصر باتهامهم هذا (١) .

فهل جاء نابليون الغازى لتحرير مصر من الأتراك المستعمرين ؟ أليس هذا القول من اللعب بالألفاظ أو اللعب بعقولنا ؟ ومن كان يحكم مصر فى ذلك الوقت ؟

وهكذا يمضى الخط التنصيرى والتغريبى حاملا معول الهدم فى تاريخنا .. فهذا (دومينيك سورديل) صاحب كتاب (الإسلام) (٢) يعالج تاريخنا وكأنه يعالج حركة وثنية غامضة ويقول عن الرسول : (إننا لا نعرف الكثير عن شخصية محمد قبل تبشيره بالإسلام ، ولا نعرف بالتأكيد إلا تاريخ هجرته من مكة إلى المدينة) مع أن حياة الرسول قبل البعثة أوضح حياة بالنسبة لكل العظماء والأنبياء .. وحياته فى مكة تكاد تعرف يوما بيوم .. !! ويستمر (دومينيك) فى تشويه حروب النبى وفى تشويه تاريخنا كله .

وفى كتاب آخر يحمل الاسم نفسه ، وقد ألفه (هنرى

---

(١) محمد جلال كشك (دخلت الخيل الأزهر) انظر عرضا لنه لكتاب العقل المسلم للدكتور عبد الحليم عويس .
(٢) نشر دار المنشورات العربية بيروت (ترجمة خليل الجر) .

ماسنيه) تتابع الأخطاء نفسها عن حياة النبى وتطور الحياة الإسلامية والنظر إلى محمد على أنه ليس نبيا وعلى أن القرآن من صناعته (١) وأما (م ـ س ـ ترتون) صاحب كتاب (أهل الذمة الإسلامية) (٢) فقد عمد إلى تشويه التسامح الإسلامى ، فيصور (الأقباط) فى مصر والشام على أنهم مضطهدون طيلة العصر العباسى وما تلاه ٠٠ وهو يجعل المسلمين دائما سبب أية فتنة طائفية تقع ، مع أنه لم يملك إلا الاعتراف بطغيان الأقلية الصليبية واستبدادها فى كثير من الأحايين •

ويأتى (كاراد وفو) الفرنسى صاحب كتاب (مفكرو الإسلام) (٣) ليسير على الدرب نفسه ويصف الخلفاء بما ليس فيهم ، فالمنصور العباسى كان منجما ، و (أم الرشيد) قامت بوضع السم للهادى أخى الرشيد حتى يخلو الأمر لابنها، ويصور الخليفة هارون الرشيد ـ شأنه فى ذلك شأن جورجى زيدان وغيره ـ بالصورة نفسها التى) صورتها ألف ليلة وليلة وكتاب الأغانى للأصفهانى : بل إنه ليكابر ويقول بأن روايات ألف ليلة ذات طابع تاريخى ، وهو يتمادى فى تخبطة فيرى أن « هرورا » سياف الرشيد كان يقطع الناس إربا لأقل هفوة ويرى أن البرامكة قد نكبهم الرشيد ظلما ، وربما أن هناك زواجا إسميا تم بين (العباسة أخت الرشيد) • وبين جعفر البرمكى ، وهى الأسطورة التى نسج حولها أوهامه (جورجى

---

(١) نشر محمد جواد مغنية الترجمة د / مصطفى الرافعى •
(٢) نشر دار المعارف بمصر ترجمة د / حسين حبشى •
(٤) ترجمة على زعيتر ، نشر بيروت (الدار المتحدة للنشر) •

زيدان) .. وحتى (المأمون) جعله (كارادوفو) محبا لعادات الفرس السامانيين ، وأما صلاح الدين الأيوبى فكان عند (كارادوفو) مرائيا نفعيا يتظاهر بأنه سنى غيور ... والويل « لمحمد الفاتح » لأنه بطل إسلامى وفاتح عظيم ولهذا يعتبره « كارادوفو » — لهذا السبب — متقلب الخلق عنيفا جافا !!

وبالإضافة إلى هذا الحشد الغريب من الافتراءات يضيف كارادوفو (صراحة) أخرى حول المؤرخين العرب المسلمين المعتمدين لديهم . أى لدى المستشرقين فيقول : إن مؤرخى الشرق الإسلامى لا يتمتعون بالشهرة فى الغرب ، والمؤرخون الذين عرفوا فى الغرب ليسوا مسلمين إن المؤرخين المعروفين لديهم هم (جرجس ، ابن العميد الملقب بالمسكين — (ت ١٢٧٣ م) والشماس القبطى بطرس الراهب وبطريق الإسكندرية المشهور (يوتخيوس) ، واليعقوبى ابن الصبرى)

أما عشرات المؤرخين الموثقين المسلمين بدءا من مؤرخى السيرة والمغازى ومرورا بالطبرى وابن الأثير وحتى المقريزى وابن كثير وابن خلدون ، وغيرهم فهم غير معروفين فى الغرب .

ولهذا فإن (كارادوفوه) نفسه لم يقدم من بين مؤرخى الشرق الإسلامى المعاصرين إلا (جورجى زيدان) ذلك المعول الهدام فى تاريخنا ، والذى ثبت ولاؤه المطلق للمحافل الماسونية وللتوجيهات الاستشراقية ، الذى قام بتحريفات فاحشة فى تاريخنا فى تلك السلسلة التى سماها (روايات تاريخ الإسلام) (!) وتاريخ الإسلام منها براء .!.

والحق أن كل ما كتبه المؤلف من مدح لجورجى زيدان يؤكد المنهج الذى أشرنا إليه سابقا ، وهو المنهج الذى يمدح المفسدين (كهولاكو وأكبر) ويذم المصلحين كصلاح الدين الأيوبى ومحمد الفاتح .

لكننا لا نغفل هنا لمحة للمؤلف تضم إلى لمحاته (الصريحة) السابقة وهى لمحة تؤكد رأينا فى جورجى زيدان — أن يؤسف لموت (زيدان) ويشير إلى أن المستشرقين فقدوه منذ زمن قليل ، فكأنه يعتبره — وهو عربى — مستشرقا وهذا ما نميل إليه .

لقد كان — بحق — كارل بروكلمان (ولد فى ألمانيا عام ١٩٦٨) — واحدا من المفكرين الذين بذلوا جهدا كبيرا فى مجال التاريخ الإسلامى والأدبى العربى ، فكتاباه تاريخ الشعوب الإسلامية وتاريخ الأدب العربى من أهم الكتب التى ألفها المستشرقون ومن أحظاها لدى القارىء العربى ، لكن بروكلمان — على الرغم من هذا — لم يستطع التخلص من المناخ نفسه الذى يفرض (الفكرة السائدة عن الإسلام) على المستشرقين .

فبروكلمان فى (تاريخ الشعوب الإسلامية يعتبر الحجر الأسود وثنا يعبده المسلمون (١) وهو يقول إن النبى اعترف بثلاثة آلهة فى الكعبة فى سنواته الأولى (٢) ويتهم النبى بأن صلته بالوحى كانت صلة ظنية احتمالية (٣) !.!

---

(١) افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان .
(٢) المرجع السابق ٩٥ .
(٣) المرجع السابق ١٠٠ .

المزيفة حول تاريخنا ، ولم يكن أمينا في تقديم حضارتنا للأوروبيين ...

إن (حتى) ينفى كل معجزات الرسول ما عدا القرآن ، ويقول إن القرآن لم يعترف إلا بهذه المعجزة الوحيدة (١) مع أن القرآن والحديث أكد وجود معجزات أخرى للرسول كانشقاق القمر ، والإسراء والمعراج ، ونبع الماء من بين أصابعه ومعجزة الغار ، وسراقة وغيرها . ويتهم (حتى) الصحابة (باتفاق) على موضع « السقيفة » ، فيقول (ولعل مبايعة أبى بكر كانت مطابقة لمشروع دبر قبل ذلك بينه وبين عمر وأبى عبيدة (٢) وهو اتفاق وهمى اخترعته عقول مريضة ولم يقم عليه أى دليل ، وقد رد عليه كل الذين كتبوا بإنصاف فى تاريخ الإسلام وفى النظريات السياسية الإسلامية .

ويتكلم عن سياسة عمر فى إدارة الدولة فيرى أن عمر وضع الدستور الفكرى الذى جعل للعروبة سموا ، وللمؤمن العجمى درجة أسمى من غير المؤمن .

وأقل ما يرد به على هذا الادعاء سلوك عمر نفسه ، وتهديد أحد الصحابة له بتقويمه بالسيف لو وجدوا فيه اعوجاجا ... فهل هذا يتناسب مع الحكم العسكرى الاشتراكى ؟

(١) تاريخ العرب المطول ١/١٧٧ نقلا عن (افتراءات فيليب حتى عبد الكريم باز ص ٤٥) .
(٢) المصدر السابق ٤٧ .

فضلا عن أن استعمال كلمة (اشتراكية) المعاصرة إسقاط فاسد على تركيبة حضارية مختلفة تماما لها أصولها ونظمها المتكاملة .
ويعزو (حتى) الحماســة البريئة فى الفتــوحات إلى الدافع الاقتصادى (١) وهذا أمر منتظر من (حتى) الذى أراد بمشيئته أن ينتمى إلى حضـــارة مادية فهو لن يستطيع فهــم الدوافع الروحية ... أما الجزية فقيمتها المادية تنفى هذا ، وقد كان المسلمون يردونها حين يعجزون عن الدفاع عن أهل الذمة ... وقد رد على هذه الشبهات (توماس أرنولد) فى كتابه (الدعوة إلى الإســلام) ...

وبما أننا لا نستطيع — فى هذه العجالة — مناقشة (حتى) فى كل آرائه ، لأن المناقشة الصحيحة لها تستوجب صفحات طويلة ، بينما المناقشات العابرة تضر بالقضية ... فنحن — بالتالى — سنشير إلى بعض أغاليطه ... ونعتقد أن أكثرها من الوضوح بحيث يدرك حقيقته جمهور المسلمين ، فضلا عن المختصين ...

يرى (حتى) أن المشكلة الأولى لعلى بن أبى طالب — رضى الله عنه — كانت فى التخلص من منافســيه فى الوظيفة الكبرى (الخلافة) وعلى رأسهم طلحة والزبير اللــذان كانا

(١) المصدر السابق ٥٢ ، ٥٥ .

يمثلان الحزب الملكى ••• وقد انضمت عائشة إلى صفوف المتمردين ضد على فى البصرة (١) •••

ونحن — فقط — فى هذا المقام — نحيل القارىء إلى ما كتب فى هذا الموضوع فى الطبرى وابن الأثير ، وأبى بكر بن العربى صاحب العواصم من القواصم ، والذهبى صاحب طبقات الحفاظ والدكتور إبراهيم شحوط فى (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ) ••• فهذه الدراسات وغيرها كثير — قد عرضت هذه القضية بحياد وموضوعية يستحقان التنويه •

ولم تكن الدولة الأموية لتمر دون تعريض سواء فى شخص معاوية — رضى الله عنه — أم فى خلفائه ••• وقد زعم (حتى) أن عبد الملك بن مروان قد ابتنى فى بيت المقدس الصخرة وكان غرضه أن يحول إليها أفواج الحجاج من مكة والتى استقر فيها منافسه ابن الزبير (٢) •

وأظن أن هذا الادعاء يكشف جرأة (حتى) بطريقة مزرية ••• فعبد الملك بن مروان فقيه عابد ناسك (كما وصفه ابن حجر والكتبى وابن الأثير وابن كثير) وقد احتج بقضائه الإمام مالك فى الموطأ ••• فكيف يتسق هذا مع هذا الكفر الذى يرميه به — بلا سند — المؤرخ حتى ؟ !

وهو يتهم عبد المالك وابنه الوليد وهشام بتناول

(١) المرجع السابق ٦١ .
(٢) المرجع السابق ٧٦ .

الخمور (١) معتمدا على (الأغانى) الذى لم يقصد به صاحبه أن يكون تاريخا ••• لكن (حتى) وأمثاله يصرون — بالقوة — على أن يكون الأغانى وألف ليلة وليلة هي المصادر التاريخية التي يتكئون عليها ••• فأى منهجية هذه ترى ؟ !

وفى حديثه عن الدولة العباسـية ينتهى إلى السـقطات نفسها التى انتهى إليها غيره من المستشرقين مثل قصة العباسة وعلاقتها بنكبة البرامكة (٢) وهلم جرا •

وهكذا تتضح لنا خيوط الهجمة التنصيرية والعلمانية على التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية والهدف الأساسى الذى تسعى إليه هذه الهجمة هو فك الارتباط الروحى والوجدانى والعقلى الذى يربطنا بهذا التاريخ ولا سيما بفترة الاجتماع التشريعى فيه ، وهى فترة الرسالة والراشدية ، ومتى ما تم هذا •• فإن تجريدنا من بقية صور انتمائنا للإسلام ميسورا •• وهذا هو هدفهم الكبير !!

تاريخنا والغزو الماركسى :

عندما نجحت الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ فى الوصول إلى الحكم فيما عرف باسم (الاتحاد السوفيتى) وقامت على إثرها

(١) المرجع السابق ٧٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

٣ ــ التركيز على تشريح مجتمعاتنا الإسلامية فى التاريخ فى صورة صراع طبقات أو فى صــورة محافظين وثوريين .. وأغنياء وفقراء .. ويمين ويسار .

٤ ــ التركيز على التفســير الواحدى للتاريخ (العامل الاقتصادى الأوحد) تقريبا فالعوامل الأخرى تكاد تكون عوامل ثانوية .

٥ ــ لصق الدين بالرجعية والتخلف ، والعمالة للأثرياء .

* * *

وفى كتابات كثيرين سيطرت نغمــة أن الإســلام دين الفقراء ، ودين الحرية ، ودين المساواة ، ودين العدل الاجتماعى، وبدأوا ينبشون تاريخنا ليكتشــفوا ــ وفق أســلوب فرض المذهب على المنهج ــ كل الشواهد التى تؤكد نظريتهم ... وبدأوا يحللون الأحداث التى وقعت فى عهد عمر وعثمان وعلى ومعاوية ــ إلى أن وصلوا إلى تاريخنا الحديث ــ تحليلا يخدم نظرتهم المبدئية المنطلقة من المادية التاريخية وقد التقوا مــع العلمانيين فى تضخيم المشكلات والخلافات التى وقعــت بين المسلمين بحكم أنهم بشر ، وقد اســتثمروها لخدمة أفكارهم أسوأ ما يكون الاستثمار فالفتنة الكبرى (وهى كبرى فى رأيهم وليس فى رأينا ... !!) أصبحت طبقة عازلة عن رؤية عظمة تاريخنا وحضارتنا ، وأصبحت بيت القصــيد فى دراســات هؤلاء !! ولم تعد صراعاً على فقه الطرائف الإسلامية لأسلوب

الحكم أو خلافا غذاه خصوم الإسلام ، بل أصبحت حركة ثورية ذات محتوى اقتصادي واجتماعى يقف منها (عثمان بن عفان) رمزا للقوة التقليدية المحافظة على مصالح الطبقة الثرية والنظام الإقطاعى ويقف فيها أبو ذر والثائرون ، رمزا للقوة التقدمية المناضلة !!

لم ينج « طه حسين » — مع ميوله الليبرالية — من هذه الآفة ، فوقع فى (الفتنة الكبرى) على شيء من التفسيرات ... وذلك عندما نظر إلى مقاومة قريش للرسول على أنها ليست مقاومة لعقيدة التوحيد أو للدين ، وإنما هى مقاومة لدعــوة مساواة السادة بالعبيد ولمبدأ عدم التفرقة بين الأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعفاء .

وبعد « طه حسين » — انهمرت سيول الكتابات الشيوعية فى لبنان ومصر وسوريا والعراق وبعض بلاد الخليج العربى ، وبعض بلاد المغرب العربى ، ولا تكاد تخلو بلد من المتأثرين بهذا المنهج اليسارى ، بل لقد ظهرت مدرسة تحاول استخدام منهج ملفق يسمى (باليسار الإسلامى) يركز وجود المكافحين ويكتشف العناصر الاقتصادية والمادية فى تراثنا وتاريخنا . ومع بداية الستينيات من هذا القرن الميلادى — أى منذ ربع قرن تقريبا — تمكنت هذه التكتلات من التعبير عن نفسها من خلال أبرز المواقع تأثيرا متلفعة بنوع من الشيوعية المعتدلة ...

وفى مجلة الكاتب — المصر ى— استطاع رئيس تحريرها

الماركسى (أحمد عباس صالح) أن يوجه المجلة وجهة يسارية ثابتة ، وقد كتب فيها سلسلة مقالات تحت عنوان (الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام) عالج فيها الأحداث التاريخية فى عهد رسول الإسلام والخلفاء الراشدين ... مقسما هذا الجيل الإسلامى الفذ إلى يمين ويسار متصارع ... دون أن يلتفت الكاتب إلى أن هذا الإسقاط (المصطلحى) الحديث الخاضع لتطورات مجتمعات معينة من الخيانة للمنهج العلمى إسقاطه على عصور مختلفة وعلى مجتمعات ربما لم تعرف مصطلح (الطبقية) بهذا المعنى الذى عرفه تطور المجتمعات الأوروبية ومع ذلك فمن أجل (المذهب) لا خير فى أن يذهب (المنهـج) العلمى إلى الجحيم !!

ولقد بلغت الجرأة المسفة بالكاتب إلى أن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم (زعيم اليسار) فهو فى رأيه — (زعيمه وواضع مبادئه الأساسية) ويعلق أحد الكتاب الإسلامين (١) على هذه الفرية الهابطة بقوله : ولكن كيف قبـل الرسـول (اليسارى) هؤلاء اليمينيين فى صفوف الإسلام وكيف أثنى عليهم وبشرهم بالجنة ؟

لقد كا نبين السابقين إلى الإســلام أبو بكـر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ،

(١) انظر التاريخ الإسلامى والمذهب المـادى فى التفسير ـ الدار الكويتية ص ١٠٨ .

كما أسلم على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وأسلم بعد ذلك خباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب وبلال ...

وهكذا سبق للإسلام أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء ، أحرار وموالى عرب وعجم ، تجار رأسماليون وعمال محترفون ... فأين كان اليمين فى هؤلاء ؟ وأين الوسط وأين اليسار ؟ وكيف أغضى زعيم اليسار عن وصولية اليمينيين ، أو كيف تقبل اليمينيون ثورية اليسار (١) .

وأيضا كيف كان هؤلاء على عهد الرسول كتلة واحدة يضحى غنيهم بماله لفقيرهم ويشترى غنيهم بماله العبيد ، ويرفض أحدهم ثلاثة أضعاف الربح فى تجارة قدمت له ، ويهبها لله :

أى للفقراء والمساكين صدقة لله مؤثرا ما عند الله !!

أليس من الهبوط العقلى — باسم المذهب — أن ينسج بعضهم خيالات يخلعها على الآخرين حتى ولو لم تكن هذه الخيالات بنت بيئتهم أو مناسبة لحقيقتهم ؟ !!

ويمضى الكاتب — دون اعتبار للمنهج — لتصنيف الصحابة إلى يمين ويسار ، وإلى رمى اليمين من الصحابة (وزعيمه

---

(٢) المصدر السابق ١٠٨ .

عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة) وغيرهم بالتآمر على اليسار لدرجة أنه حملهم مسؤولية قتل عمر بن الخطاب الذى جعله الكاتب زعيم الوسط الذى انتهى ثوريا ••• ولهذا قتل بمؤامرة يمينية أدانها أبو لؤلؤة المجوسى •••

وهو تحليل متهافت يعتمد على أوهام مختلقة اختلاقا لكى يستفيد منها صاحب (المذهب) على حساب أية (منهجية علمية) ••• أما أبو ذر وعلى بن أبى طالب ــ رضى الله عنهما ــ فهما أبرز زعماء اليسار ••• وبعد جهاد ومعاناة نجح اليسار فى تولى السلطة عندما وصل على إلى الحكم !!

وهكذا نجد أسلوبا فجا فى تشريح الوقائع ، وهو أسلوب لسنا بسبيل الرد عليه فلقد عالجته دراسات كثيرة وأصبح الآن كلاما ممجوجا لعل أصحابه أصبحوا يخجلون منه •••

لكن هذا الغزو المادى لتاريخنا ــ فى كل مراحله ولا سيما الفترة الأولى ــ ظهرت له تكتلات متعددة متعاونة مستخدمة قدرتها الجلية ، ومستخدمة الثقافة التقليدية التى حصر كثير من أصحاب الاتجاه الإسلامى أنفسهم فيها •

ولقد عرفنا من هذه التكتلات اليسارية فى المجال التاريخى كثيرين من بينهم « جلال العظم » صاحب نقد الفكر الدينى والدكتور « محمود إسماعيل » صاحب الحركات السرية فى الإسلام والدكتور « محمد خلف الله » صاحب الفن القصصى

من القرآن والدكتور « راشد البراوى » مترجم رأس المـال ، (وجلال العالم) ، (ومحمود أمين العالم) ، (وطارق بشرى) (ومحمد أنيس) ، (محمد عمارة) ، (وصبحى وحيـد) ، و (منح الصالح) و (عبد العظيم رمضان) ، و (نديم البيطار)، و (حسن حنفى) ، و (عبد الرحمن الشرقاوى) وغيرهم .

والحقيقة أن غزو (التفسير المادى) لتاريخنا ، لم يقف عند حدود الماركسيين وحدهم ، ولا عند حدود اليساريين الذين يقولون إنهم يرفضون الماركسية فى العقيدة ويقبلونها فى الرؤية للتاريخ .. وإنما تجاوز الغزو هـؤلاء إلى قطـاع كبير من المؤرخين الذين أصبحوا — بحسن نية غالبا — يركزون على تأثير العوامل الاقتصادية ، ويبالغون فى قدرتها ، حتى لتكـاد العوامل الأخرى العقيدية والفكرية والأخلاقيـة والاجتماعية وغيرها من العوامل الفاعلة فى التاريخ تتضاءل أمام هذا التركيز على دور العامل الاقتصادى ... مع أن التاريخ يمدنا بعشرات من الحركات التى ضحى الناس فيها بحياتهم وأموالهم وأوطانهم فى سبيل القيم الأعلى للإنسان فى هذه الحياة ... وبالطبـع لا يعنى هذا — من جانبنا — إنكارا لدور العامل المادى أو تقليلا لشـأنه !!

تاريخنا والتفسيرات القومية :

لقد تعرض تاريخنا — كما تعرضت كل قيم حياتنـا — لتغيرات قومية منحرفة كل منها يحاول كسب كل المعالم الوضيئة

فى تاريخنا لحساب قومه ، ورمى الأقـــوام الآخـــرين الذين أسهموا فى صناعة الحضارة الإسلامية بكل الأخطاء ... فقومه — وحدهم — هم المبدعون ، وإليهم ينسب كل الفضل ، بينما الأقوام الآخرون هم الخاطؤون فى كل موقف ، ولا فضل لهم فى هذا التاريخ ولا هذه الحضارة الإسلامية ... ونكتفى فى هذا المقام بضرب بعض النماذج لنعرف كم كانت هذه التفسيرات القومية متجنية وبلهاء .

إن فتح المسلمين للمغرب والأندلس كان فتحا إسلاميا ، ولم يكن فتحا عربيا (قوميا) ، ذلك لأن من أبســط الأمـــور البديهية أن القائمين بها كانوا من جيل التابعين (ومنهم صحابة) ولم يكن يحرك هؤلاء إلا الإسلام ، وقد كان الأعجمى الصالح عندهم أفضل من العربى الكافر والفاسق : . حتى ولو كان هذا العربى عم النبى — عليه الصلاة والسلام .

ومع هذه البديهيه فثم حقائق أخرى تاريخية تدين تشريح الفتح الإسلامى للمغرب بمبضع قومى عربى أو غير عربى ...

إن الفتح الإسلامى للمغرب لم تستقر أقدامه ويدخـــل مراحل حاسمة من الفتح إلا بمساعدة عناصر غير عربية ، فمن المعروف أن فتح المسلمين للمغرب هو أطول الفتوحات الإسلامية وقد تعرض للانتكاسات فى عدد من المواقف ، فقد قتل (عقبة ابن أبى نافع) ، .. وصاحبه أبو المهاجر دينار ، وذلك سنة (٦٤ هـ) . وقد قتل زهير بن قيس البـــدوى ســـنة (٦٩ هـ)

ونلاحظ من مقتل زهير أنه كان بعد أكثر من أربعين سنة من بداية الفتح ، فالحالة كانت كما نرى غير طيبة ، لكن أقــدام الفتح فى الحقيقة لم ترسخ على نحو مؤثر إلا من خلال عدد من المواقف أهمها :

١ — سياسة أبى مهاجر دينار فى تأليف البربر مما جعل « كسيلة » زعيم البرانس يسـلم ، ويسـلم قومه البرانس بإسلامه . وبواسطة مساعدتهم دخل أبو مهاجر دينار أرض الجزائر حتى تلمسان ولم يكن أحد قبله قد استطاع دخـول الجزائر . أى أن أبى المهاجر فتح الجزائر بواسطة الجزائريين البرانس أنفسهم .

٢ — سياسة حسان بن نعمان فى تأليف البربر بعـد أن هزم فى موقعة الأوراس أمام الكاهنة ، ومن ثم سخط البربر على الكاهنة بعد أن أحرقت مزارعهـم ، وانضمامهم جماعات وأفراداً إلى حسان ، حتى أولاد الكاهنة أنفسهم ، مما مكـن حسانا من هزيمة الكاهنة سنة (٨٠ هـ) فى موقعة قابس .

٣ — وأيضا فإن حسانا إلى جانب استعانته بالبربر ضد الكاهنة فقد استعان بهم فى تحضير البلاد ، كما أنه استجلب إلى المغرب ألف أسرة مصرية (حرفيـة) للنهوض بالصناعة فى البلاد .

فالفتـح الحقيقى للمغرب كان بواسـطة أجنـاس

إسلامية متعددة على رأسها أصحاب البـــلاد أنفســـهم فكيف يسمى بالفتح العربى للمغرب إذن ؟ !! ــ إنه فتح إســـلامى وكفى !!

وأما فتح الأندلس فقد كان إسلاميا حتى بلغة الإحصاء ، فإننا لو أحصينا الجيش الفاتح الذى ذهب مع طارق بن زياد (البربرى) •• سواء السبعة آلاف الأولى أم الخمسة الملحقة بها فسوف نجد أن معظم الجيش ليس عربيـــا إلا إذا كانت كلمة العروبة مرادفة لكلمة الإسلام حسب الاستعمال التجوزى الكريم فى حضارتنا قبل أن تظهر لعنة القومية التى تحـــارب الإسلام وتتنكر له باسم العروبة عند العرب ، والطورانية عند الترك ، والفارسية عند الفرس •

ولو استعرضنا تاريخ الأندلس فســوف نجد أن العرب كانوا كغيرهم لهم أخطاؤهم وحسناتهم ••• وقد دخل زعماؤهم فى صراع مرير على الحكم ، متلفعين برداء العروبة المستعلية مثل ابن أبى حاتم ، ويوسف الفهرى ، وبقيـــة الولاة الذين ظهروا فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، ولعل مذابح الحكم الربضى (١٨٠ ــ ٢٢٠ هـ) البشعة للمولدين أبنـــاء البلاد الأصلاء لن تشرف كثيرا المتمسكين بأمجاد النزعة القومية، كما أن الفتنة الطائفيـــة (٢٩٩ ــ ٤٢٢ هـ) التى كانت مـــن أسباب سقوط الأندلس ، والتى ســقطت فيها طليطلـــة قلب الأندلس ••• هذه الفتنة تحمل فيها العـــرب كغيرهم أوزار الاغتصاب والنهب والاستهانة بالدماء ، ولم يقدموا نموذجا

لفضل من غيرهم ، وقد كادت الأندلس تسـقط لولا أن قيض الله لأنقاذها رجـالا من صميم صنهاجة المسـلمة العظيمـة (البربرية) ـ من ناحية الأصل ـ بقيادة البطـل العظـيم « يوسف بن تاشفين » رضى الله عنه وعمر ابن عمه العظيم أبى بكر بن عمر اللمتونى !!

إن الاعتزاز القومى باسم العروبة لن يخدم العرب ولا المسلمين ، وأن من شأنه دفع الأجناس الأخرى للبحث عـن دورها فى الحضارة الإسلامية مع أن الدور كان مختلطا لا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ومن الصعب توزيع هذه الأمجاد ، لأن الآبـاء لم يتركوها بطريقة تقبـل القسـمة ، ولأنهم لم يقوموا بها لكى نتوزعها نحن ، بل قاموا بها حسبة إسلامية خالصة بصورة تعاونية تكاملية ••• وأيضا لقد قاموا بها لنضيف إليها لا لنتقاتل عليها • وأن استعمال المصطلحات الشعوبية ليست فى مصلحة الأمة العربية ، ولقـد استطاع أعداء الإسلام من مستغربين ومتمركسين استغلال هذه النزعة فحاولوا فصل العرب عن المسلمين بمبضع الاستعلاء الكذوب !!

إن مجال حصر التجنيات القومية عن تاريخنا تمتد إلى كل أجزاء هذا التاريخ وحضارته فأصحاب المنظار القومى لم يستحوا عن طمس الحقائق وتلوينها بمنظارهم القومى ، حتى شخصيات الصحابة والتابعين ، وحتى صـلاح الدين الأيوبى الكردى وسيف الدين قطـز المملوكى ، والسلطان عبد الحميد تركى ، كل هؤلاء يقومون بمقياس شعوبى فيحاول بعضـهم سرقة أمجادهم لحسـاب العرب ثم مـع ذلك لا يستريحون

إليهم — حتى مع حسناتهم — لأنهم لم يكونوا فى النهاية عربا .. وحتى موقف السلطان عبد الحميد رضى الله عنه من فلسطين والذى كان من أشرف المواقف فى التاريخ الحديث حتى هـذا الموقف يهال عليه التراب ، ولا يكاد يذكر ، ويصور السلطان عبد الحميد بصورة مزرية لا تليق بعظمته وسمو دينه .

إن النظرة القومية لتاريخنا — بخاصة — نظرة عميـاء ظالمة عنصرية لا تخشى الله ولا يهمها الحقائق الموضوعية ... وإن خطرها فى تأجيج الفتن كبير ، وأنا لا أبرئ أصحابها من الخضوع للأهداف التمزيقية حتى ولو لم يحسوا بذلك .

إن الحضارة الإسلامية وتاريخها ميراث لكل المسـلمين لا يمكن تقسيمه ، ومن أراد الرفعـة فليتقـدم بهذا التراث مضيفا إليه وبانيا فوقه . أما الذى يريد التمزيق واغتصـاب حقوق إخوانه وشركائه فى صناعة هذه الحضارة فهذا فى حقيقته عدو مبين لهذه الخصائص العظيمة المتكاملة التى صنعها كـل مسلم ، عربيا كان أو مولى ، تركيا أو بربريا أو فارسيا ، فكلهم ساهم فيها باسم الإسلام ، وكلهم أرادها إسلامية ، ويجب أن تبقى — وسوف تبقى بإذن الله — إسلامية إلى يوم القيامة .

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٨٦/٤٩٨١

الترقيم الدولى : ٩ ـ ٧٦ ـ ١٤٣٠ ـ ٩٧٧

مطبعـــة عبـــير للكتـــاب

١٦ ش لمعى المطيعى ـــ حدائق حلوان

ت : ٦٨٨٤٨٤